زينب عفيفي
أحلم وأنا بجوارك
رواية
الدار المصرية اللبنانية

أحلم وأنا بجوارك

رواية

عفيفي، زينب .

أحلم وأنا بجوارك: رواية/زينب عفيفي.- ط 1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.

200ص؛ 20سم .

تدمك : 978 - 977 - 795 - 207 - 1

1- القصص العربية .

أ-العنوان . 813

رقم الإيداع : 2018/ 25617

©

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون : 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : 2019م

الدار المصرية اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار .

1

مشاعري نحوه مختلطة .

انتظرته في يقظتي ومنامي، وحينما تحقق الحلم كان كابوسا فظيعا، لماذا يأتي الحب بعد طول انتظار مخلوطا بالسم، مغموسا في الوجع هكذا؟

إذا كانت حواسنا تحمل ذكرياتنا، فأنا بلا ذكريات، حاولت أن أعود إلى نفسي فكان عليّ أن أسير على أطراف أصابعي حتى لا أوقظ الذاكرة؛ فلا أحد يستطيع أن يعرف ما تشعر به امرأة قاربت على الأربعين من عمرها دون أن يمسسها رجل، دون أن تتذكر صوتا أو رائحة أو لمسة يد من حبيب؛ فاختارت الروايات سكنا لأحلامها، إيمانا بأن الله سيعاقب أولئك الذين لم يجربوا الحب ولو مرة واحدة في حياتهم !

أعيش مع أمي في بيت عتيق بالمعادي، ورثناه عن جدي لأمي، لم يزل البيت يحمل رائحته، بناه بنفسه من الحجارة البيضاء وأحاطه بحديقة صغيرة تاركا فيه شجرتين وحيدتين ياسمينة بيضاء وارفة، ونخلة سامقة بلا طرح، ورثت عن أمي الحب، وورثت عن أبي لون بشرته القمحاوية ولون عينيه العسليتين وعناده وغضبه وطيبته. ورثت عنه كذلك مكتبة صغيرة من الكتب

الدينية والتفاسير وكتب الفقه وألف ليلة وليلة، كانت في الأصل لأبيه .

أضافت أمي إلى المكتبة قبل أن تفقد بصرها رفا من الروايات وكتب الفلسفة وعلم النفس، لكنني أنا التي جعلت المكتبة تكبر يوما بعد يوم إلى أن صار لدي تلال من الكتب تطوّق حياتي، راقت لي الإقامة بينها. كل ما عشته في واقعي مجرد سطور في كتاب أو حكاية في رواية .

في صغري عشقت أبطال الروايات والحكايات، الذين وجدت فيهم صورا وقصصا تمنيت أن أعيش حكاياتها، كم شغلتني «سندريلا » وحذاؤها المفقود، وأرعبتني الساحرة الشريرة وعصاها الطائرة، وأقلقتني «ذات الرداء الأحمر » وتربص الذئب بها، لكن «سنو وايت » كانت أميرتي المفضلة التي أيقظها الأمير بقبلة الحياة.. كنت لا أريد مغادرة عالم الطفولة، حتى أن زملائي في المدرسة كانوا يسخرون مني بسبب أحلامي غير الواقعية.. وحينما كبرت صارت الروايات حياة موازية لحياتي.. لم أغفل قصص «روميو وجوليت » ، و «قيس وليلى » ، و «كليوباترا وأنطونيو » ، روايات عشت فيها حالات الحب وعذاباته، الحب الذي يأتي إليك ولا تسعى إليه، الحب الذي يدخلنا في عداد الأحياء، ضاربة بنصيحة أمي «عُرض الحائط »: بأن قصة حب واحدة في الحقيقة خير من عشر في رواية، لم أستطع أن

أقول لها أن الروايات بإمكانها أن تشفينا من أوجاعنا، وتساعدنا على فهم حياتنا، وبعضها قادر على تنويرنا ومنحنا حياة أرحب من واقع يضيق بأحلامنا ويحرمنا من أبسط حقوقنا في حياة هادئة بعيدة عن عيون الفضوليين والتدخل في شئوننا الصغيرة التي لا تهم أحدًا غيرنا، هل الرجال فقدوا أبصارهم؟!، لكن أمي كانت على يقين من أن ما في الروايات يظل بداخلها، وأن الواقع فيه ما هو أقوى وأغرب وأجمل من الخيال. وكنت على يقين من أن الزواج الذي لا يأتي عن حب من الأفضل ألا يأتي أبدًا .

كل ليلة أستلقي على فراشي وأغمض عينيّ، ، أنتظرالأمير الذي يمتطي حصانه الأبيض ليمنحني قبلة الحياة كي أصير أميرته التي يحلم بها، لكنه لم يأت.. ولم أيأس، كنت أذهب أبحث عنه كل يوم في المكتبة القريبة من بيتي سيرا على الأقدام، أطوي الطريق تارة بالغناء والدندنة، وتارة أخرى بالقفز متنقلة على قدميّ رقصا ومرحا، وأحيانا أتريث في السير كجندي في طابور الصباح حتى لا يظن المارة بي الجنون..أحوال العالم خارج بيتنا مجرد مشاهد وحكايات.أراها في التليفزيون في نشرات إخبارية، أوأستمع إليها مع أمي من المذياع الذي تعيش على ضفافه .

كم أسعدتني روايات وأبكتني قصص لفقدان الحبيب أو موت بطلة الرواية في نهايتها، لا أنكر أنني أحب

النهايات السعيدة، لكن حبنا للأشياء والأشخاص ليس له علاقة بالأقدار، كم أحزنني اضطراري لإعادة روايات لم أستكمل أحداثها بسبب انتهاء مدة إعارتها، مما يضطرني إلى إعادتها، وأنا ما زلت عالقة بين يدي بطلها .

ساعات طويلة أقضيها بجوار أمي، أقرأ، وهي مستمتعة بشغف مغمضة العينين التي لا تبصر بهما تاركة لخيالها العنان، يدور بيني وبينها حوارات كثيرة حول ما نقرؤه معا، تصل أحيانا إلى خلافات حول أبطال الروايات، وفي أحيان أخرى نغرق في الضحك من تصرف بطلة من البطلات بشكل ساذج، أمي تقف دائما في صف المرأة المغلوبة على أمرها مثل الست «أمينة » في ثلاثية نجيب محفوظ، التي كرهتُ بسببها الطيبة وحسن النية، الرجال لا يحبون النساء الطيبات، المرأة المسالمة تمنح الرجل طمأنينة، والرجل الذي يأمن جانب زوجته يسهل عليه خيانتها، أقول لأمي بتجربتي القليلة : «بعض من المكر النسائي يفيد الحياة الزوجية » لكن أمي تلقائية لدرجة الخيبة والعفوية التي تملأ قلبها وتجده على لسانها في أول ثانية من سؤالها عن أية مشكلة، هي مثال لأمينة زوجة سي السيد في طيبتها وحسن نيتها ولكنها تمتلك بصيرة القلب والحكمة الصائبة التي لا يدركها المبصرون في كثير من الأحيان، أما أبي فصورة طبق الأصل من سي السيد، الرجل القوي العنيد المسيطر الذي يقود زمام كل شيء، أما

خارج البيت فالأمر مختلف تماما رجلا لطيفا رقيقا، يحسدنا عليه كل من يلتقي به، لدرجة أن كثيرا من النساء والفتيات الصغيرات ما تقع في غرامه من أول نظرة، أما أنا وأمي فيحتفظ لنا بوجهه الكَشِر الذي لا يعرف الابتسامة، حتى ظننت أنه لم يبتسم في حياته أبدا، لم أحب أبي مثلما أحببت أمي، تعاطفت مع ضعفها واستكانتها وشدة إخلاصها لرجل يجيد مداعبة النساء والسهر لديهن حتى منتصف الليالي، لم أحب عودته مبكرا إلى البيت، لأن تلك الليلة محكوم علينا فيها بالنكد والبكاء من كثرة صرخاته، وقسوة انتقاداته المتكررة لأمي المسكينة.. وتأنيبه لي بأنني لا أفعل شيئا في حياتي غير القراءة، التي لن يأتي من ورائها غير تضييع للوقت ووجع في العيون، وأنها قد تصيبني بفقدان البصر مثل أمي، كان يسمعني كلاما موجعا كلما لمح بين يديَّ كتابا أو رواية أو حتى مجلة من مجلات الموضة محذرا: بأنني طالما أنا جالسة بين الكتب لن أجد زوجا، وسأظل عانسا ولن أرى في حياتي رجلا يقبل الزواج مني، فالرجال -على حد قوله-لا يفضلون النساء اللاتي يعشقن القراءة.. لأن الكتب في رأيه لا تجلب غير التعاسة ..

رغم ما كان يؤلمني من كلامه إلا أنني كنت أحلم بأن أنعم بالزواج من رجل لا يشبهه .

في إحدى الليالي الباردة الممطرة، كنا جالستين أنا وأمي في حجرة المعيشة أروي لها قصصا قرأتها وتحكي لي حكايات من زمنها الجميل، فجأة قطع خلوتنا طرق عنيف على باب البيت، نهضت من مقعدي منتفضة لأتبين من الطارق الذي لا يكف عن طرق الباب بقوة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، فوجئت بأمين شرطة يخبرني بأن والدي لقي مصرعه إثر مداهمة سيارة نقل مسرعة على الطريق الدائري أثناء عودته ،وأن هناك من حملوه إلى المستشفى ولكنه لفظ أنفاسه في الطريق قبل إسعافه.. أصبت بحالة هستيرية غير مصدقة لما يقول هذا الأمين المجهول، أخذت أصرخ بكلمات غير مفهمومة، صاحت أمي فزعة في مكانها، ماذا حدث؟

قلت لها: أبي مات .

منذ تلك الليلة ارتدى البيت السواد، خيم الحزن على كل ركن من أركانه، لم نعد نسمع غير أصواتنا .. رحل أبي وافتقدناه كرجل البيت، رغم قسوته وإهانته وتأنيبه لنا، حزنت عليه كثيرا، تمنيت لوأنه لم يمت، ويفعل بنا ما يريد.. ضاق البيت الكبيرعلينا، لم نعد نسمع غيرصدى صوته في الفراغ، لم يشفني من أحزاني غير القراءة وسيلتي الوحيدة التي اتكأت عليها كمنقذ من عتمة الوحدة.. وكسر حالة الصمت التي لازمت أمي بعد رحيله..وأدركت أن اليتم يصب في الأعماق مرارة قاتمة

لا تزول، وانكسارًا في الروح، وإحساسًا حادًّا بفقد الحماية التي كان يضفيها علينا وجوده وحضوره الخشن، ولم أكن أدرك قيمته إلا بعد افتقاده ليزداد لواذي بأمي وبالروايات .

بدأت تتسع دائرة وجود أبطال الروايات في حياتي.. صاروا يأتون لي كل ليلة ليؤنسوا وحدتي في هذا الفراغ الذي تركه أبي بعد رحيله، هم من يستمعون إلى هلاوسي الليلية دون استدعاء، هم من يكتمون أسراري في حالاتي المتناقضة من الحزن والفرح. والضحك والصراخ والاحتياج والشعور الزائف بالقوة والاحتمال. ونوبات النشوة والرغبات المكبوتة.. رأيت فيهم ما رآه «بول أوستر » في القراءة من أنها الملاذ والعزاء والسلوى والحافز على الاختيار.. والسكون الجميل، الذي يحيط بنا ونحن نصغي إلى أصداء كلمات المؤلف وهي تتردد في رؤوسنا " ، وما أعيشه مع أبطال الروايات من محن تشبه حالتي المتقلبة بين الدهشة والاكتشاف والرغبة في اكتشاف عالم جديد يغير من واقع حياتي الساكن بين أوراق الروايات إلى عالم من البهجة والحياة والضوضاء التي لم تعد تعرف طريقها إلى بيتنا من بعد تلك الطرقة العنيفة من أمين الشرطة في ليلة حزينة .

صارت حياتي موزعة بين عالمين، عالم أمي وتلبية احتياجاتها وعالم الكتب وما أعيش فيه من حكايات،

كتاب يدخلني عالما محفوفا بالأسرار، وآخر يأخذني إلى عالم السحر والخيال، وثالث أقع مع بطله في قصة حب، ورابع يسلب مني النوم وخامس أرى أبطاله بين منامي ويقظتي.. ويختلط واقعي بالخيال .

هكذا تشكلت حياتنا كلوحة فنية بريشة رسام أتقن رسم لوحته لفتاة تجلس على كرسي وثير تقرأ، وأم ممشوقة القوام تعكف على عزف لحن موسيقي حزين على أوتار بيانو قديم وهي ترتدي أفخم الثياب .. في جو عائلي دافئ صنعناه بأنفسنا دون أن يجبرنا عليه أحد..
استشعرت السعادة تسير بين أروقة البيت حين تعزف لي أمي لحنها الحزين كل ليلة ، الذي أحببته أكثر في كل مرة ، فحينما يعزف لك شخص تحبه تتكشف لك مشاعره العميقة نحوك.. وعزف أمي يولد بداخلي حنينا لأشياء أحسها ولا أتلمسها إلا مع أبطال الروايات وأنا معهم داخل غرفتي المغلقة لفترات طويلة، تصل ليوم أو يومين، دون أن أغادر مكاني إلا في أوقات تناول الطعام في صحبة أمي أو تلبية مطلب تحتاجه، ونادرا ما تستعين بي فهي كثيرا ما تفضل الاعتماد على نفسها حتى لا تشعرني بعجزها.. وهذا الأمر يملؤني رعبا عليها؛ وخاصة حين أغيب عن المنزل لقضاء أمر ضروري .

هذه الرتابة التي صنعناها سويا وأحببناها معا لم تشعرني يوما بالملل. كثيرا ما أجلس على مقعدي الوثير

بجوارالنافذة التي تطل على حديقة البيت الخلفية، متأملة شجرة الياسمين الوارفة، والنخلة السامقة التي تهتز سعفها حين أمعن النظر فيها، إلى أن يغالبني النوم فأصحو على أحلام لا أعرف إذا كانت أحلام يقظة أم منام، حالات تنقلني إلى عوالم تجعلني أطير ابتهاجا كطفلة تشاكس النجوم وترقص تحت ضوء القمر، وأخرى تأخذني إلى أماكن مظلمة مخيفة لخيالات تخترق حجرتي فأغمض عيني وأختبئ تحت الغطاء إلى أن تنصرف من مخيلتي.. تأخذني الحكاية إلى واقع متجدد لا أكرهه ولا أحبه، لكني أجد فيه نفسي مدفوعة نحو المكتبة بحماس كأنني أزورها لأول مرة، محتضنة كتابا أو كتابين على الأكثر لو سمح «محمد متولي » أمين المكتبة لي بذلك .

سألني يوما لكثرة ترددي على المكتبة: هل تستطيعين قراءة كتاب جديد كل يوم؟ وأجيب عليه بصراحة :

- القصص القصيرة لا تستغرق وقتا طويلا، أما الأعمال الكاملة فتأخذ مني أسبوعا على الأكثر حينما تسمح لي بتجديد استعارتها .

ينظر لي مبتسما ونظارته الطبية تكاد تنزلق من فوق عينيه ويمنعها أنفه المدبب: أسمح طبعا، لماذا لا أسمح؟ .. ثم يستطرد بنظرته الثابتة لعينيه الضيقتين الغائرتين :

كل المكتبة تحت أمرك !.

ولا أعلق على كلامه، لأنني أدرك تماما أنه لا يسمح لأحد أن يعيد كتابا متأخرا عن موعده مهما كانت أعذاره، كنت مشغولة بأحوال الطريق الذي عمت فيه الفوضى من زحام المارة والسيارات، في شارع يضيق بكل أنواع المركبات، ولايتسع لغيرحارتين، تتصارع عليهما أربعة مسارات بشكل جنوني يجعله يضج بالاختناق والصراخ من عويل آلات التنبيه التي تسد الأذن من كثرة الانتباه في وجوه العابرين والسائرين فوق الأرصفة، وهم يخترقون إشارات المرور، غير عابئين باتباع علامات المرور المعطلة معظم الوقت، وخاصة في حالة ذروة هرج ومرج المغادرين من الموظفين وتلاميذ المدارس لأماكنهم في نفس التوقيت، يتحول الشارع في لحظة إلى سرك يصعب اختراقه، مما يجعل العبور للاتجاه المعاكس نحو بيتي ضربا من الخيال ..

كانت الشمس على وشك المغيب حينما وصلت إلى البيت، لم أسمع صوت أنفاس أمي التي اعتدت أن أراها أمامي بمجرد سماع صوت حركة المفتاح في مغلاق الباب.. ظننت أنها نائمة.. تسحبت على أطراف أصابعي حتى لا أقلق منامها، لمحت ضوء النهارالخافت يتسرب من فتحة باب غرفتها الموارب، فأيقنت أنها مازالت مستيقظة، اتجهت نحوها وجدتها تجلس بجوار الشرفة المطلة على حديقة البيت الخلفية، أسرعت الخطى

إليها، لمحت على وجهها ملامح حزن قديم وخوف جديد وبعض من القلق المنتظر. ظننت أنها تتألم أوتعاني من وجع تحاول أن تخفيه عني..سألتها: ماذا حدث؟ التفتت نحو مصدرصوتي وهي تهز رأسها بالنفي بصوت خافت: حمدا لله على السلامة .

- ماذا بك ؟ هل حدث شيء في غيابي؟ لم تجب ، أعدت عليها سؤالي:لا تثيري قلقي ؟ ماذا بك؟

بعد تردد وصمت خلع قلبي: أفكر في الموت !

قلت بفزع : موت !! ماذا حدث؟.. لا تجعلي الخوف يقتلني! هل حدث مكروه لا أعرفه؟

- لاشيء غير أنني أخشى عليك من الوحدة .

أخذت نفسا عميقا.. ثم قلت بتلعثم: أي وحدة تقصدين يا أمي؟ !

صمتت قليلا وقالت بأسى أم تخشى عنوسة ابنتها: ماذا لو مت؟ وتركتك وحدك، ماذا ستفعلين بمفردك، أنا خائفة عليك .

ذرفت دموعا لم تتمكن من منعها بصوت محشرج: أنا السبب ، أنا التي فرضت عليك هذه الوحدة وهذا الحصار الأبدي .

انتفضت من مكاني وطوقتها بذراعي كأم تحتضن ابنتها بعد ما لمست في نبرة صوتها كل هذا القلق بشأني أكثر مما تخيلت!.. ووضعت رأسي بين كفيها: ماذا تقصدين بكلامك عن الوحدة والموت، إذا كنت تفكرين في وحدتي بعدم الزواج، صدقيني أنا بخير، أعيش بين أحضان أروع أم، في بيت أحبه ويحمل كل الذكريات الحلوة التي تشعرني بالأمان، رائحة جدي وذكرى أبي في كل ركن فيه؛ اطمئني، لا أحد يأخذ أكثر من نصيبه، وأنا نصيبي رضاك عني، ووجودك في حياتي.. لم أشعر يوما بأنني سجينة وحدتي أو أنك فرضت عليَّ حياة لا أريدها ، أحب أن أقول لك أنني لا أطمع في حياة أكثر دفئا من حياتنا معا في هذا البيت، وأخذت أربت على كتفيها: يكفي أنه يضمنا معا ..

حاولت أن أغير من مزاجها الحزين، ولكني فشلت؛ أخذت أشاكسها وبقيت ممسكة بكفيها محاولة تخفيف حدة مخاوفها قلت لها: من الذي قال لك أن الزواج هو الطمأنينة؟..الطمأنينة وجودنا معا في بيت ننعم فيه بالحرية وعدم التسلط من أحد، الرجال مصدر إزعاج في كل الأحوال.. وضحكت.. ولكنها لم تعلق ..

اقتربت منها أكثر واحتضنتها هامسة: إذا كان بقائي بلا زواج يثير قلقك فأنا لست مهمومة بأمره، ولا أفكرفيه، إلا إذا جاء أمير الأحلام على حصانه الأبيض.وخطفني منك بموافقتك وكامل رضاك .

وضحكتُ مرة ثانية ولكنها لم تضحك.. كان قلقها أثقل من مجرد ابتسامة، لم أستطع تبديد هذا الخوف الرابض بداخلها .

حاولت أن أداعب خصلات شعرها الرمادية المنسدلة على كتفيها، التي تضفي عليها جمالا هادئا، كأميرة من أميرات القصص.. لكنها لم تتقبل المشاكسة، فشلت كل محاولاتي في إعادة الابتسامة إلى شفتيها ..

بددت محاولات إخفاء خوفها عَلَيَّ: كان نفسي أشوف لك طفل في حياتي .

ضحكت وقلت: تحبي تتعشي إيه؟

لم تجب على سؤالي، نهضت من مكانها تحاول أن تعد لنا الطعام كعادتها حينما تريد أن تتغلب على ألم أوضيق يسكنها ولا تجد منه مفرا، هذا العناد الذي ورثته عنها، حينما أخفق في فعل شيء أريده ولا أستطيعه فأستبدله بتصرف آخر. هكذا تتعامل أمي مع انفعالاتها وأشيائها الصغيرة .... تتحرك بعصبية معتمدة على حاسة اللمس والشم في حركات انفعالية وهذا يملؤني رعبا عليها، حتى إننا لم نفكر في تجديد أو استبدال أثاث بيتنا ، الذي تركناه ثابتا في مكانه تتحسسه وتتلمسه كعلامة تساعدها في الحركة داخل الغرف وبين صالات المعيشة أو في الولوج للمطبخ وقتما ترغب بإعداد كوب من الشاي بنفسها أو قهوة دون

مساعدتي.إنها تتحرك في أرجاء الشقة من خلال ذكرياتها وهي مبصرة.. تستدعى من أعماقها جزيئات معيشتها السابقة.. تتحرك وكأنها ترى كل شيء، هذا ما أدركته من مراقبتها في كل حركاتها وسكناتها مما أسبغ عليَّ مشاعر من الطمأنينة عندما تنفرد بنفسها بالشقة وقت غيابي .

أمي تمتلك قدرات ذهنية ونفسية تفوق خيالي على التصديق، أتذكر أسلوب تعاملها معي وتربيتها لي وأنا صغيرة.. لا أستطيع نسيان ما فعلته معي حينما أردت أن أحصل على درس في اللغة العربية ؛ أذكر أنني كنت في الصف الثالث الإعدادي، حين ذهبت لأخبرها برغبتي الملحة في الحصول على درس في اللغة العربية مثل الكثيرات من أقراني، وجدتها تجلس على الأريكة الجلدية الموجودة في حجرة المعيشة -أتذكر ذلك جَيِّدًا وكأنه حدث بالأمس القريب-كانت منشغلة في صنع «بلوفر » تريكو، سألتها إذا كانت تسمح لي بالالتحاق بأحد فصول التقوية في اللغة العربية، لم أكمل كلامي حتى ألقت إبرة التريكو جانبا والتفتت نحو صوتي: تريدين ماذا؟ أريد درسا في ...

تقاطعني بتهكم: لم أسمعك جيدا .

كررت طلبي.. أريد درسا في اللغة العربية؟

اعتدلت في جلستها وهي تنظر لي: اللغة العربية، ما لها؟! ماذا فيها من صعوبة تجعلك تفكرين في تلقي درس؟

قاطعتها: الشعر والنصوص.. لا أستطيع فهمها بمفردي .

قالت بحسم: هل يمكنك إحضاركتاب اللغة العربية؟ .

نظرت لها باستغراب ولم أفهم ما تقصد !

وبعد أن كررت كلامها بإحضار كتاب النصوص، اضطررت لتلبية طلبها وأنا صامتة،لم أفهم يومها ماذا تريد مني بالضبط ؟، صاحت في وجهي: افتحي الكتاب على النص المراد فهمه .

كان بيتًا للشاعر أبي القاسم الشابي في قصيدة «إرادة الحياة »

سألتني: ما عنوان النص؟

أجبتها، ثم طلبت مني القراءة بصوت عال، أخذت أقرأ النص كاملا ومع كل شطر كانت تستوقفني وتسألني: ما الجمال في النص؟ وما معنى الكلمات؟ وما الذي يقصده الشاعرمن هذا الشطر؟، كنت أجيبها .

وفي النهاية سألتني: ما الصعوبة؟

قلت: لا شيء

قالت بنبرة صوت حنونة غير اللهجة التي واجهتني بها قبل أن نتحاور حول النص: ليست الشعوب وحدها إذا أرادت الحياة فلابد أن يستجيب القدر، وإنما الفرد أيضا إذا أراد الحياة والنجاح والتفوق والتغلب على كسله لابد وأن يستجيب القدر .

قبلت رأسها وعدت إلى مكتبي أستكمل واجباتي في صمت، وعشرات الأسئلة تتقاذف في رأسي، من أين استقت أمي الصبر وطول البال، رغم ما تعانيه من فقدان البصر، وظلام دائم لا نحتمله نحن -المبصرين-، ليلة واحدة، حينما ينقطع فيها التيار الكهربائي لعشر دقائق؟ !

في أحيان كثيرة كنت أنسى أن أمي لا تبصر .

إننا نحيا حياة بسيطة، كحياة أبي وجدي، حياتنا لا تكتمل إلا بوجودنا معا. ظروفنا حتمت علينا الوحدة وعدم الاختلاط بالناس خارج نطاق بيتنا وحديقتنا المزهرة، عدم قدرة أمي على التفاعل في الحياة العامة بشكل طبيعي أفقدنا كثيرا من العلاقات الاجتماعية، منذ وعيتها وهي لا تبصر، لم أستوعب مأساة فقدان البصر، كطفلة تكبر بجوارها، كنت أحكي لها بكل عفوية كل ما أراه، وأصف لها تفاصيل المشاهد دون أن أدرك أنني أرسي في خيالها صورا لا تراها، والغريب أنها كانت تفاجئني بأوصاف حكاياتي وتكملها لي بتجاربها الحياتية، فألتزم الصمت تقديرا واحتراما لرؤيتها

الخاصة، وأحيانا تنفجر بداخلي أسئلة محيرة لا أجد لها إجابات، تمنيت لو كانت لي صديقة مقربة أو ابنة خال أو ابن عم أحكي معهم حكايات غير التي أرويها لأمي، ظروفنا لم تكن تسمح بتلك الرفاهية، بل كانت حدا فاصلا للعالم الخارجي الذي لا نتواصل فيه إلا من خلال العلاقات السريعة مع بائع الصحف أو الخبز، أو محصل الغاز والكهرباء أما بقية الاحتياجات أقوم بها بمفردي أو أستدعيها «ديلفري » ،وأحوال العالم من حولنا كنا نتابعها من خلال نشرات الأخبار في المذياع أو شاشة التليفزيون هي تسمع وأنا أصف لها المشاهد أو أترك لخيالها تولي هذه المهمة التي كانت تفضلها عن وصفي للمشهد، هكذا كانت حياتنا التي صنعناها بالكيفية التي تريح أمي وتجعلني راضية بتفاصيل أيامنا الصغيرة والأحداث العامة من حولنا على حد السواء، لم أكن تعيسة بحياتي، ولا سعيدة أيضا، ولكنني تعايشت مع ظروفي وأبطال رواياتي الذين يؤنسون وحدتي كل ليلة حينما أنفرد معهم في قصة تخصهم وأندمج فيها، أفرح لفرحهم وأبكي لمأساتهم وهكذا نتبادل الأدوار أنا وهم بين الأحاسيس والمشاعر دون ملل أو كلل بل أحيانا كنت أستدعيهم إذا تأخر أحدهم عن الحضور في موعده إلى غرفتي المغلقة .

2

لا أرى ما لا تراه .

لم أر البحر في حياتي إلا من حكايات زميلاتي في المدرسة، وهن يروين كيف يقضين أوقاتهن على الشاطئ كل صيف، كنت أتوق لرؤية البحر، الذي لم أره إلا على شاشات التليفزيون أو من وصفه في سطور الروايات على لسان الأبطال، لم أسمع صوت أمواجه ولم أشاهد زبده وهياجه، كان خيالا يراودني أشتاق إليه،لا أستطيع رؤيته.كأشياء كثيرة حرمتها على نفسي اقتناعا بأنها لا تستطيع أن تراها مثلي، اخترت أن تكون حجرتي هي عالمي الذي أنعم فيه بالخصوصية التامة، بالقراءة أو سماع الموسيقى، والغناء بصوت عال كلما أحسست برغبتي في البكاء، أرقص كدراويش الملوية لتبديد وحدتي وسط أربعة جدران مزينة بصورفنية من لوحات لرسامين محببين لقلبي «بيكاسو » ونسائه الغامضات، و «فان جوخ » ووروده الحزينة، صوري تحمل ذكرياتي في بيتنا العتيق، وأنا طفلة بشعري المنكوش، وأمي تحملني بين يديها وأبي يربت على كتفها في حنان متقن، صور لها وهي شابة ترتدي الجينز مع بلوزة وردية فضفاضة كفراشة حالمة، يتطاير شعرها الكستنائي من خلفها طليقا في جنون، ابتسامتها

الصافية كاشفة عن روح في نقاء قلبها ما زالت تأسرني بحنانها.. صور،عتيقة لمناظر طبيعية أوربية في براويز قديمة، ورثناها معلقة على الجدران ..

كم تشبه ملامحي ملامح أمي، غير أن لون بشرتي قمحي وعيوني عسلية مثل أبي، لم أرث لون سحر عيونها السود، ولا حمرة بشرتها النضرة .

تزوجت أمي من أبي وهي طالبة في كلية الآداب قسم علم نفس واجتماع، وبعد ثلاثة أعوام من زواجها أنجبتني، ثم بدأ بصرها يضعف رويدا رويدا إلى أن تلاشى، لم تعد تبصر، رغم قسوة والدي وانشغالاته لم يبخل عليها بالعلاج، عرضها على أكبر الأطباء، لكنهم وقفوا عاجزين أمام إرث العمى التدريجي. لم تستطع أن تراني وأنا أكبر بجوارها، كانت تتحسسني فتعرف كم سنتيمترا أضيف إلى طولي، وكم صار حجم نهديّ، وكيف صارت مقاسات خصري وكتفي، ما زالت تحتفظ بذاكرة الألوان، أقول لها أنني أرتدي فستانا أحمر أو شالا أخضر أو أنني ارتديت نظارة طبية، أخبرها بكل تفاصيل ملامحي في كل مرحلة عمرية أصل إليها، إلى أن صرت صورة طبق الأصل منها، في عمرها الأربعيني،الذي تجهل فيه ملامحها ، وأراها أنا وحدي في صورها، فهي فقدت نظرها وهي في الثلاثين من عمرها كما علمت حين وعيت أنها لم تعد تراني .. لم يتبق في ذاكرتها غير عناوين روايات قديمة، وكتب مرصوصة على أرفف

المكتبة لم تتمكن من قراءتها، وملامح قديمة لوجوه بعض من عرفتهم، وذكريات لأماكن لم تعد تراها، كل ذلك جعلني لا أبرح البيت ولا أتوق لرؤية أماكن لا تستطيع أمي أن تراها معي .. حتى البحر الذي اشتقت إليه وعزَّت رؤيته بدون عيون أمي، لم يعاودني الحنين إليه .. وأصبح في دستوري الخاص كل ما لا تراه لا يجب أن أراه أنا أيضا، تقديسا لفقدان بصرها، مازلت أعنف نفسي كلما تذكرت ما قلته لها يوما: ما رأيك في عمل مغامرة أنا وأنت، نسافر إلى الإسكندرية نتناول سمك على البحر ثم نعود في نفس اليوم؟

وجدت في صوتها نغمة شجن جعلتني أتراجع في التو، ولا أعيد عليها مثل هذه الأشياء مرة أخرى، تخلصا من الموقف اقترحت عليها طلب «ديلفري » من أقرب مطعم بجوارنا. صار عالم الروايات هو عالمي الذي أسبح فيه دون ارتداء ملابس البحر، أو الاضطرار إلى الانتقال إليه، أذكر ملمس أول كتاب أخفيته عن العيون وقرأته سرا، كان قصة «مجدولين.. تحت ظلال الزيزفون » التي أبدعها «ألفونس كار » وعرّبها «مصطفى المنفلوطي » ، كنت أرى نفسي في مجدولين الفتاة القروية، التي أرهقتني، وأربكتني، تفاعلت معها جِدا، ذَرفت الدموع فِي نهايتها إثر رِسالة «مجدولين » الأخيرة لِـ «إستيفن » ، أحببتها، وأحببت قِيم ومبادئ «إستيفن » ، أحببت قلبه، ورهافته، ومع كل إعجابي بهذه الرواية التي قرأتها في بداية شغفي بالقراءة، لم

أومن بتلك الدفقة الغزيرة مِن المشاعر التي قد تقتلني، كما لم أؤمن كثيرا بوجود نسخة من «إستيفن » على أرض الواقع، رغم هذا وَرغم تلك الدفقة الموجعة من الألم وَالحب، يبقى في ذهني سؤال يتردد كلما خلوت إلى نفسي: هل فعلا كانت «مجدولين » ستعيش في سعادة أبدية لو أنها تزوجت الشاب الذي أحبها بصدق؟، وهل كان سيحقق هو كل ذلك النجاح في حياته لو أنه تزوج «مجدولين » ؟.. قصص الحب الحقيقية التي سمعتها وقرأت عنها حملت مآسي وأحزانا ونهايات غير سعيدة.. كان لنا جار موسيقي لا يكف عن العزف ليل نهار على بيانو قديم متهالك قطعة موسيقية واحدة حفظها كل سكان الحي، حبيبته كانت تسكن في الدور السابع من المبني المقابل لبيتنا، تنتظره كل ليلة بعد أن ينام الجميع، تنبعث من شرفته السفلية موسيقاه المكررة، رأيت في قصتهما «روميو وجوليت » ، وأيقنت أنها قصة لن تنتهي نهاية سعيدة، وصدقت توقعاتي، وعرفت من جارتنا الثرثارة التي تقتحم بيتنا أحيانا، أنهما لم يتزوجا، وتزوجت هي من رجل ثري بضغط من والديها وظل الموسيقي يعزف لحنه كل ليلة .

تولد لدي اشتياق لا يبرحني إلا وأنا بين يدي كتاب أو رواية جديدة، ولما رأت «فرجينيا وولف الروائية البريطانية » ، «أن الرغبة في القراءة مثل جميع الأشواق الأخرى التي تحير أرواحنا التعيسة قادرة على

إسعادنا » ، كانت تعبر بصدق عما أحسه وما أعيشه بين صفحات الكتب ورحيق أوراقها وملمس أغلفتها .

ترقد بجوارسريري عشرات من الروايات والقصص مرصوصة بنظام ودقة طوابير الجنود في ثكناتهم العسكرية، أختار منها كل ليلة ما يروق لي من رواية أوكتاب، أعيش مع أبطالها حكاياتهم، فقد أصبحوا أصدقاء مقربين مثل ما حدث لي مع «آنا كارنينا » في رائعة «ليو تولستوي » ، كم عذبتني حيرتها بين مشاعرها المنقسمة بين حبيبها وطفلها، وزوج يرى في الحياة نجاحاته الشخصية، ووجودها في الحياة مكمل لهيئته الاجتماعية، زوج لا يعرف غير الطموح، وليس فى دنياه إلا المناصب، وآراؤه السامية وولعه بالثقافة وتعلقه بالدين، كان بعضا من وسائله إلى تحقيق مطامعه، غمرتني حكايتها، مع اعتراضي على التضحية بابنها من أجل حبيبها «فرونسكي » ، وعندما لم تستطع تحقيق التوازن بينهما تلقي بنفسها تحت عجلات القطار، تنهي مأساتها بالموت .

أغمضت عيني في محاولة نسيان عذابات «آنا » ، لكنها أبت أن تتركني وحدي أتخبط في هلاوسي من حكايتها مع فرونسكي، وجدتها تعتدل في جلستها أمامي على مقعدي الوثير تحادثني : «إني أحب ابني وفرونسكي بالتساوي فيما أعتقد، أحب كليهما أكثر مما أحب نفسي. هذان هما المخلوقان اللذان أحبهما، لكن كل واحد يطرد

الآخر من حياتي، ليس في وسعي أن أحصل عليهما معا » ، مدافعة عن حبها والظلم الذي نالها من زوج يكبرها في العمر ولا يتفهم مشاعرها، لتقول لي :« كل العائلات السعيدة تتشابه، لكن لكل عائلة تعيسة طريقتها الخاصة في التعاسة ».ثم إن «تولستوي » رأى في روايته أن لكل شخص قلبا وعقلا ومصلحة عليا، فلا أحد يقوم بأمر ما إلا وله مبرره الخاص الذي قد يكون، وقد لا يكون مطابقا للمُثُل العليا التي يسعى الروائيون عادة إلى تعزيزها في المجتمعات، حيث كل من في الرواية مثير للشفقة وكلهم أنانيون، وكل منهم كان له المبرر المقنع والمنطقي لما قام به .

طويت الرواية جانبا.. بقيت يقظة طوال الليل أسأل نفسي: لماذا نضع أنفسنا على طرق مسدودة ونحن نعلم أنها كذلك؟، هل نحن أضعف من واقعنا حينما نجد أنفسنا بين ما تمنحنا إياه الحياة وبين ما نحبه ونتمناه؟.. لا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله لو كنت في مكان «آنا » ربما أفسدت الرواية من الأصل ورفضت الزواج من هذا الرجل ولم أنسق وراء عاطفتي المجنونة تجاه «فرونسكي » ، ربما لم أكن لأفكر مطلقا في الإنجاب من رجل لم أحبه يوما، كيف لزوجة أن تعاشر زوجا لا تطيق رائحته؟! كل هذه الأمور تجعلني أشعر بالارتياح أنني لم أفكر في الزواج من رجل لا تربطني به عاطفة حب، وأن قصصي العاطفية لم تشغل أكثر من واقعها من كونها محض تخيلات .

ما احتملته أمي في حياتها من صبر على معاملة أبي الذي لم يشعرها يوما بعاطفته، التي كان يوزعها كبائع اللبن على الحي كله، دون أن تتذوق هي رشفة واحدة، عاشت تتحدى الظلام وحدها بقلب بصير يرى ما لم يره أبي، الذي كان يرى العالم ولم ير ما في بيته.. أتأمل صورة أبي على جدران غرفتي وهو يرتدي بدلته الأنيقة متألقا في ليلة زفافه، وأمي بجواره تبدو كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، وأتعجب من أين جاء بكل هذه الغلظة.مع امرأة جميلة وطيبة القلب !

أرهقتني «آنا » بمأساتها؛ ما نعيشه في واقعنا أحيانا أكثر وجعا مما يكتب في الروايات، فالمؤلف لايعلم وقع أبطال روايته في نفس قارئه بالطبع ربما يراه بشكل عام لكن أن يعرف تحديدا تأثيره على قارئ بعينه، أعتقد أنه خيال؛ وخاصة إذا كان عاشقا محموما بالحب مثلي، المؤلف لا يكتب رواياته على مقاس عشاقه.. كلنا مغرمون بلا حبيب، وما يتراءى للمؤلف أنه الوطن، يراه قارئه الحبيب المفقود،السابح في سماء غرفتي الفارغة، المسكونة بالروايات والحكايات التي تأخذني على جناحيها كل ليلة وتلقي بي في حضن حبيب مجهول، أنتظره أن يقفز من شرفتي متسلقا شجرة الياسمين الساكنة تحت الشرفة من سنوات طويلة، وهي تمنحني -بصبر-الرحيق والحنان والدفء بعد رحيل أبي .

وها أنا كل ليلة أرتدي أجمل الثياب وأتعطر بعطرها، فإذا زارني في الأحلام سيجد عروسته البكر، التي لم يمسسها أحد، في انتظار أول لمسة من يده، وأول قبلة من شفتيه، لن ترضى بديلا عن رجل يسد فراغ ثقوب ثوب العرس المطرز بالخرز والمحلى بالتل الأبيض وعقود الياسمين حلم أمي من سنين، حلم العمر الذي قد يأتي أو يغيب إلى الأبد .

3

الهلاوس تريحني أحيانا !

العالم خارج حجرتي، عالم مشوش، مسكون بالمخاوف، يمتلئ بالناس الذين أعجز عن التعامل معهم، أكره نظرات شفقتهم على فقدان أمي لبصرها، ووجودنا معا كامرأتين وحيدتين بلا رجل، المجتمع الذي نعيش فيه يكبلنا بقيوده التي لا نملك الفرار منها إلا بابتسامة باهتة أو هزة رأس في وجه فضولي يسأل بشغف عن حالنا، ليس للاطمئنان وإنما لمعرفة خبايانا التي لم تكن خبايا بقدر ما هي شئون خاصة لا تهم أحدا غيرنا .

ساعات طويلة لا أبرح غرفتي أقضيها بصحبة رواية أو استراحة مع قصة قصيرة؛ لا أنتبه للوقت إلا عند سماع صوت خطوات أمي وهي آتية نحوي؛ تخبرني بموعد تناول الطعام أو تطلعني على خبر هام سمعته في المذياع ، هكذا تسير حياتنا هادئة .

اعتدت حياتي التي تشبه النهر الصامت الذي يعرف طريقه من منبعه إلى مصبه، دون التفكير في تغييرمساره .

حين تضيق جدران غرفتي وتشعرني بالوحدة، أذهب لرؤية «عم محمد متولي » أمين المكتبة، وأنسى تأنيبه لي حينما أعيد كتابا متأخرًا، لأنه يتناسى هو أيضا الأمر بمجرد رؤيتي؛ يحادثني عن أحوال المكتبة وما آلت إليه الكتب من إهمال، ووجود نسخ قديمة عالقة على الأرفف بلونها الأصفر وأوراقها المهترئة دون إمداده بالكتب الجديدة، لولا مداواته لها لصارت في مخازن مظلمة لا ترى النور، وتحولت إلى مخزن للغذاء الملكي للفئران، أرى في عيونه عشقًا حقيقيًا للكتب أكثر من أي شيء آخر، ينتهز الفرص ويحكي لي عنها كعاشق يتحدث عن حبيباته، مرات كثيرة يحادثني عن رواية قرأها ويرشحها لي كي أقرأها أو كتاب يجد فيه شيئا لافتا؛ ويريد أن يخبرني عنه، هكذا ارتبطت نفسيا ووجدانيا بالمكان بما فيه «عم محمد » وحكاياته، وكتبه المرصوصة في نظام يعرفه دون عناء ، عكس مكتبتي التي تعم فيها الفوضي لولا يد أمي الحنونة التي تمتد إليها في دأب لتعيدها إلى أماكنها؛ كأنني خُلقت للبحث عن رفيق أو حبيب ولا أجده في عالم يضيق ويتسع مع الحكايات الساكنة بين صفحات الروايات .

قضيت أياما كثيرة أبحث عن كتب بعينها ولا أجدها في وقت احتياجي؛ وحينما أكف عن البحث عنها، أجدها بجواري! تماما كمن يبحث عن نظارته وهي فوق عينيه .

أخذتني هلاوسي الصباحية ونسيت أن الساعة قاربت على العاشرة والنصف صباحا، وأنا ما زلت أناوش كسلي في الفراش، نهضت من سريري في قفزة واحدة حتى لا أعاود النوم من جديد، اتخذت قرارًا حاسما بلا رجعة في رؤية عم محمد ومفاجأته بالزيارة بعد غياب طال، ارتديت ملابسي بتكاسل، اخترت معطفا بنيا قديما لأمي، لا يتبع الموضة الحديثة لكنه يحمل رائحتها، أحب الأشياء الحاملة للذكريات؛ ولا أهتم بالأشياء المجردة مهما كانت غالية الثمن أو كونها تتبع الموضة أو لا تتبعها مثلما تفعل أمي، لا أحب تنورة معينة أو بلوزة بعينها إلا لوحملت ذكرى في حياتي، هكذا أتعامل مع أزيائي وتفاصيل حياتي الصغيرة، وردة جفت بين دفتي كتاب ، قلم جف حبره بعد كلمات صاغها في لحظة صدق، لون أزرق في لوحة، بطل في رواية صار صديقا خفيا، أسير في الحياة محملة بأشيائي واحتياجاتي البسيطة منها .

وجدته جالسا بين كتبه كعادته، منكبا على أحدها ؛ يقلب صفحاتها، يفرد أوراقها المنطوية بعد يد قارئ نسي أن يعيدها لطبيعتها، نظارته الطبية التي تكاد أن تنزلق كالعادة من فوق أنفه، وجوم وجه كأنه يتلو تراتيل قرآنية ، غارقا في بحور كتبه التي لا يعرف غيرها .

تفاجأ برؤيتي، تهلل وجهه بالفرح مرحبا.. كمن التقى صديقا مقربا بعد غياب طويل:أهلا «مي » نورت المكتبة

سألته عن حاله فاختفت ابتسامته ونظر لي بعينين ساهمتين: حال القراء مع الكتب.. وصمت .

قلت له: ماذا حدث لهم؟ قال: لم يعد الحال كما كنت تواظبين على المجيء، كل شيء تبدل، حتى الشباب الذين كانوا يأتون من أجل الكتاب وأبحاثهم الجامعية بعد ما انتهت دراساتهم اختفوا ولم أعد أراهم، خلت المكتبة منهم ومن ناس كثيرة غيرهم، وهذا أمر يحزنني، أشعر بأن الكتاب بلغته الشيخوخة مثلي .

قلت: شيخوخة إيه التي تتحدث عنها؟، أنت ما زلت في شبابك، ثم الشباب شباب القلب والروح والفكر، وأنت ماشاء الله تمتلك الروح المتفائلة المحبة للحياة وعطاؤك لكل من حولك يكفي العالم ويفيض، عوالم الكتب في حياتك كلها ملكك، حال الكتب والقراء ليس له علاقة بشيخوختك، الحياة من حولنا أصبحت صعبة يا «عم محمد » ؛ والناس الذين كانوا يأتون لاستعارة كتاب أو قراءته، لم يعد لديهم الوقت أو المال لينفقوه على الكتاب، انشغالات الحياة اليومية أخذتنا بعيدا عن القراءة ولم تعد من أولويات حياتنا، حتى الذين كانوا يداومون على المجيء إلى المكتبة؛ أنا مثال حي أمامك انشغالاتي العائلية خففت رجلي عن الإتيان لاستعارة

كتاب أو قراءته في باحة المكتبة على سبيل التغيير؛ إيقاع الحياة اختلف؛ لا تجعل تقلبات الحياة من حولنا مسار وجعك؛ الناس أعذار. فلا تُحمِّل نفسك مواجع عامة لست طرفا فيها. فالحياة حين نضع مشاكلها فوق رؤوسنا تأخذنا وتغور بنا في أعماقها فلا نرى الأشياء الجميلة من حولنا، وهي ليست قليلة لو نتفكر .

نظر لي كأنني أتحدث بلغة لا يعرفها ولم أرد على سؤال عينيه واستكملت حديثي :

الكتب يا «عم محمد » أصبحت في قائمة الرفاهية ؛ ثم المزوَّر منها أصبح ملقى على نواصي الشوارع في كل مكان، رخيص ومتوافر، وهذا الوضع جعل عشاق القراءة يبحثون عنها خارج المكتبات. مشاكل كثيرة ليس لها دخل بك أو بالمكتبة والكتب والشيخوخة. ياريت تهون على نفسك .

يسمعني بانتباه محدقا في وجهي ولا يجيب، هل لأنني أتحدث في موضوع لا يتخيل وقوعه أم لأنه ليس لديه إجابة عما قلت .

لم أحاول تفسير هذا الوجوم الذي علا وجهه، لأن وجهه يعلوه دوما وجوم مبهم !

حاولت أن أغير مجرى الحديث، حينما لمحت شابا أنيقا في أحد أركان المكتبة يتنقل بين أرفف الكتب كنحلة

تمتص رحيق الكتب وتعيد ترتيبها في نظام مذهل، تبدو عليه مظاهر الثراء من ملبسه ومظهره، يرتدي بنطالا أسود وتي شيرت مقلما بين اللون الأخضر والأبيض، وسيم كأحد نجوم الإعلانات التليفزيونية، سألته بشغف: من هذا الشاب الوسيم؟

هز رأسه متخاذلا: الموظف الجديد يا ستي؛ الذي سيحل مكاني بعد خروجي إلى المعاش، يأتي كل يوم لمدة ساعتين يستوضح مني تفاصيل المكتبة وكيفية التعامل مع الكتب، ثم تنهد بحزن: حان الوقت للرحيل، لم يعد غيرشهرين في عمر عملي هنا .

حينما لاحظ انزعاجي قال باسما: كل شيء له نهاية .

ساد بيننا صمت لا يعقبه تعليق، وتشوبه الدهشة .

كنت أرى في عم محمد مثال العاشق المخلص للكتب، يرمم كتابا قديما ويلملم أوراقه المهترئة، يطبطب على الكتاب كصديق لا يريد مفارقته، يداويه وينظم أوراقه المنفلتة بين ملازمه ليعيدها إلى مكانها الطبيعي، كأنها لم تخرج أو تتمرد على صفحاته .

كسر الصمت الذي ران بيننا للحظات وقال بعيون لامعة إثر دموع حاول إخفاءها: وجدت عملا قريبا من عملي كأمين مكتبة و ....

قاطعته بفرح طفولي: بجد.. أين وجدته؟

قال: هناك مكتبة عامة في حي زهراء المعادي، أعلنت عن وظيفة شاغرة لأمين مكتبة .. قاطعته: هذا أمر رائع

قال: نعم.. لكن المكتبة بعيدة عن بيتي، وهذا أمر لا أقدر عليه صحيا. ثم استطرد مستسلما : توجد مكتبة أخرى بجوارسكني، تهتم بمستلزمات الكتب المدرسية، عرض عليّ صاحبها أن أساعده في ترتيب المكان

قاطعته بغضب: قريبة لكنها لا تناسبك !

أنت عاشق للكتب وهذه المكتبة كما فهمت تبيع أدوات مكتبية ، يعني ليس لها علاقة بالكتب !

- أعرف ولكنها في الشارع الخلفي لسكني ولا تحتاج لأكثر من بضع خطوات للوصول إليها.. أفكر جديا في قبول الوظيفة بدلا من المكوث في بيتي وحيدا .

- لم أعلق على مبرراته ، تركته يحدث نفسه بصوت مرتفع لعله يقتنع بما يقول !

أومأ برأسه مستندا بكفه على إحدى وجنتيه: هناك نهاية لكل شيء حتى الحب والعمر.. هو الزمن يا عزيزتي .

لأول مرة أسمع من عم محمد كلمة «عزيزتي » ، وقبل أن يلحظ اندهاشي، قال: نعم أنا معجب بحبك ودأبك على القراءة، وإصرارك على المجيء بشكل دوري

للمكتبة غير كثيرات من اللاتي في مثل عمرك ممن كن يأتين يوما ويختفين شهرا أو ممن كن يأتين المكتبة للمواعدة، أما أنت كنت تواظبين على المجيء والقراءة وكنت أرى فيك الجدية وعشق القراءة .

قلت بعفوية: الكتاب حياتي التي أعيشها بين دفتيه .

- رد بعفوية: أعرف وأنا مثلك .

واستطرد: لكن لا يجب أن تنسي أن ما بداخل الروايات يبقى روايات فلا تسمحي لما تقرئين أن يبعدك عن الواقع، دنيا الروايات ساحرة وجميلة لكنها من صنع أشخاص أجادوا صنع الخيال وإن كان الخيال مبعثه من الواقع .

أسمع أمي تحادثني و ..

قلت بحسم: لكنه خيال نمتلكه، أما الواقع رغم يقينه فإنه لا يحمل لنا دوما ما نريد، بل إنه قد يحملنا ما لا نحتمل، في الروايات يمكن أن نقلب الصفحة التي لا تروق لنا أما في الحياة نقلب صفحة من عمرنا، وإذا أثارت رواية غضبك يمكنك أن تلقيها من الشرفة .

قاطعني ضاحكا: هذا شأن جميل لعلاقتك بالكتب، لكن حذار أن تأخذك القراءة بعيدا عن حياة العائلة والأسرة، أعرف أن حياتك ليس فيها غير الكتب والروايات مثل حياتي تماما، وقد أخذني الشغف الشديد بالكتاب

وحرمني من أن تكون لي عائلة وها أنا في الستين من عمري رجل وحيد، لا يملك غير الحكايات الموجودة في الكتب .

قلت: القراءة حياة ولا تجعلنا نشعر بالوحدة أبدا، يكفي حياة الروايات لنحيا.. أشتبك مع أبطالها هذا أحبه وهذا أريده وهذا أرفضه وهذا أقتله... وهناك من لا أقوى عليه فأستسلم له، هكذا يتسع عالمي بالرجال في الروايات، وطالما أستطيع أن أفعل بالرجال ما أريده فلماذا أتزوج أحدا منهم.؟!. وضحكت

قال مبتسما وهذا أمر لا يحدث معه كثيرا ولكن يبدو أن حديث الكتب له شأن آخر لديه :

قرأت يوما كتابا طريفا لكاتبة لا أذكر اسمها عن عاشقات القراءة اللاتي لا يستطعن اختيار الرجل المناسب..اسمه «اقتربي من الرجل القارئ.. واحذري من الرجل الكاتب » قاطعته: كلامك يشعرني كأنني أسمع أمي تحدثني، لماذا يرى البعض أن حياتي ينقصها شيء لأنني لم أتزوج، هل الزواج هو الحياة؟ افترض أنني وجدته يقرأ الكتب ويكتب الروايات؟ ماذا سيكون الحل؟ أقترب أم أبتعد عنه؟ وكتمت ضحكتي في هذه المرة، لكنه لاحظ استخفافي بما حكاه،فرمقني بنظرة ارتياب قائلا: الزواج هو الوجه الحسن في الحياة إذا كنا محظوظين أما إذا لم نكن كذلك فالعزلة أروع، كما قال «إدجار ألن بو »: «العزلة جميلة لكن من الضروري أن تجد شخصا آخر

ليقول لك إن العزلة جميلة » ، الحياة بتجربتي يا «مي » تصير جدباء بلا زواج، ولا يدرك ذلك إلا من وصل إلى مثل عمري دون أن يتزوج، الرجال الذين أخذتهم مشاغلهم دون زواج يشعرون بالوحدة حتى لو أنكروا ذلك، كثيرا ما يتملكني الافتقاد لحضن امرأة أو ضم طفل أو فرحة اللعب مع حفيد، كل ذلك أصبح مستحيلا، حتى لو فكرت أن أتزوج، أين بقية الأحلام؟ !

يا ألله كأن أبي يحادثني : القراءة ستجعل منك عانسا .

وجدت في نبرة صوته نوعا من الشجن والحزن قلت له بسرعة: ما هي حكاية الكاتبة التي كتبت هذا الكتاب.. ولكنه لم يجبني.وعندما ألححت عليه أن يروي لي حكاية الكتاب قال: طالما الحكاية تعني لك مزاحا ولهوا لن أحكي شيئا ...

قلت: من فضلك من أجلي احك لي فأنا مغرمة بحكاياتك .

رمقني بنظرة خافية محاولا إخفاء حالة احتباس في صوته انتابته فجأة: بحكاياتي فقط!، وأخذ يتنحنح :«على كل حال هوكتاب طريف فيه مقالات عديدة عن أشكال الزواج بأسلوب ساخر، لفت نظري قلت أحدثك عنه » ، حاولت أن أثنيه عن رفضه في أن يروي لي حكاية الكتاب،ولكنه رفض أن ينطق بكلمة واحدة عن الكاتبة، أو عن الكتاب ذاته .

حاولت مرة ثانية أن أعتذر، ولم أفلح، لم يقبل اعتذاري إلا عندما أقسمت أنني لم أقصد مضايقته، واعترفت له بأن السبب الحقيقي وراء عدم ارتباطي بالزواج هو أنني لا أريد ترك أمي وحيدة، فلا أعرف إذا كان الرجل الذي سأتزوجه سوف يحتمل أن تعيش معنا امرأة مسنة لا تبصر، بكل تبعات الحالة التي تحتاج إليها أمي لمساعدتي، رغم اعتمادها على نفسها في أمور كثيرة فإنها لا تستطيع أن تعيش بمفردها، ولا أستطيع أن أعيش بدونها.. أي رجل يمكن أن يحتمل ذلك سواء كان كاتبا أو قارئا أو لا يعرف حروف الهجاء .

صمت هنيهة ثم قال: لم أكن أعلم شيئا عما تعانينه مع والدتك !

قاطعته بصرامة: لا أعاني شيئا مع أمي، أفعل كل شيء من أجلها بمنتهى الرضا والسعادة، ما لا تعرفه أنها قارئة أفضل منك ومني ولولا فقدانها لبصرها لكانت مبدعة رائعة .

لاحظت الدهشة على وجهه ولم أشأ أن أروي له قصة حياة أمي، لكني قلت : «يكفي أن أمي أعز صديقة لي في هذه الدنيا ولا شيء في حياتي غيرها وغير الكتب .»

انقلب حوارنا إلى عكس مساره؛ أخذ هو يهدئ من ثورتي بدلا مما كنت أحاوله تجاهه .

حواراتي مع عم محمد تتراوح بين الشد والجذب فإن لم يكن حول موضوع مثل الذي اختلفنا عليه، يكون حول تأخير كتاب لم أعده للمكتبة في موعده، أو رغبتي في استعارة كتابين في وقت واحد؛ لكن في النهاية تنتهي خلافاتنا بتنازل أحدنا عن رأيه إرضاء للطرف الثاني، هناك خيط رفيع من المودة والاحترام المتبادل التي يحملها كلانا للآخر دون أن يعلن ذلك بالكلمات، أو بصوت يسمعه العالم من حولنا .

أحمل له كثيرا من المودة والحب كأبي الذي لم يشعرني بحبه، لم أفتقد صورة الأب، لكني أرى في عم محمد حنانا غائبا؛ حتما كان أبي يحبني ويحب أمي على طريقته وفي التوقيت الذي يناسبه، لكنه لم يظهر لنا هذا الحب في حياته؛ كانت خشونته وقسوته تخفي خلفها حبه الذي لم ألمسه إلا بعد رحيله .

ما عرفته وأدركته من قراءاتي أن بعض القسوة حب أيضا وإن كان حبا يُخِلُّ بالحب وقيمته، رغم ذلك لم أستجد الحب والحنان من رجال في مثل عمر أبي؛ لأني أتصور أن الحب قوة بمفردها لايحتاج اشتباكا مع صور أو حكايات أو أشباه.. الحب حضور لحظة في ذاته، لايرتبط بماض أو أبدية أو تاريخ نتعلمه منه.. الحب له بصماته على أصحابه، كل حكاية حب لا تستعير حالتها من حالة أحد آخر. الحب طاقة خفية لا يحتملها إلا القلب ولا يستطيع العقل احتماله في حالاته

القصوى.الحب يبقى حلما صعب المنال بشروطي التي وضعتها على رباط قلبي الذي لا يستطيع أن يفك أسره غير أحد أبطال الروايات شرط أن يمتلك طاقة سوبرمان الخارقة .

الهلاوس تحميني أحيانا من رياح التوقعات .

4

قصص أمي أحداثها واقعية .

كانت هناك طريقة بسيطة تسهّل عليّ قراءة الكتب وأخشى أن تتوه مني في متاهة مكتبتي الممتلئة بالكتب حد التضخم، ذلك بأن أضع على طاولة صغيرة بجواري خمسة كتب على الأكثر، أنتقي منها مجموعة أريد قراءتها مرتبة ترتيبا يوافق رغبتي، ثم بعد الانتهاء من المجموعة الأولى أستبدلها بمجموعة أخرى بنفس ترتيب الأولويات.. الطريف أن أمي تشاركني في اختيار ما أنتوي قراءته، وتقترح عليَّ أحيانا رواية قد أعجبتها حينما كانت قادرة على القراءة، ذكرياتها حول الكتب مثل أرشيف ضخم أستعين بها أحيانا في اختيار بعض الروايات..أحبت هي مؤلفة رواية « ذهب مع الريح ».. وشغلتني أنا البطلة «سكارلت »بجنوحها في الرواية من عذابات حبها لرجل لم يحبها يوما « أشلي » ورجل أحبها « بتلر » طول حياته، لم تستطع أن تحافظ عليه في أعقاب الصراع الدائر بين الشمال والجنوب الأمريكي، ما شغل أمي ليست أحداث الرواية بكل ما فيها من مفارقات ودراما عشق ومفاجآت بقدر ما انجذبت أكثر نحو حكاية المؤلفة «مارجريت ميتشل » التي لم تكتب في حياتها غير هذه الرواية إثر إصابتها

بكسر في قدميها، منعها من الحركة لمدة ثلاثة أشهر، وحين تذمرت من الملل وطول وقت مرضها، أهداها زوجها أوراقا وقلما، وطلب منها أن تتسلى بتأليف رواية وكانت رواية «ذهب مع الريح » أشهر قصة حب في تاريخ الأدب الأمريكي الكلاسيكي، لم أشعر بملل أو ضيق وأنا أقرأ مع أمي رواية «ذهب مع الريح » مرة ثانية أو قصة قصيرة لـ «موباسان » عدة مرات، لم أشعر أنه واجب ملقى على عاتقي تجاه أمي المثقفة التي تعاني الملل والوحدة لقلة تفاعلها مع الحياة، بل القراءة في حضرة أمي تمنحني سعادة المشاركة مع أبطال ومؤلفي رواياتي المفضلين، وحينما تؤلمني حالة «سكارلت » العاطفية تقول لي أمي:هذا الكم الهائل من التعقيدات غير موجود في الواقع، هذا الحب الجارف وهذه المشاعر الجياشة التي تملأ صفحات الرواية مجرد مشاعر في رواية، لكن الافتقاد والحب في الواقع غير ذلك.. في حياة الناس العادية وقائع أوجع بكثير من الأمور الأخرى التي تشغل بالهم، هل سمعت عن أحد توجع كما يفعل الناس في هذه الكتب؟!.. هناك أمور أكثر قسوة في الحياة من نيل حب حبيب، لا يوجد أقسى من أن تريدي بشدة رؤية ملامح حبيب ولا تستطيعين فعل ذلك، لا يوجد أقسى من تمني رؤية لمعة عين ولا تستطيعين، الصوت ينقل الإحساس بلا صورة، إنه يترك للخيال هذه المهمة، السمع غير الرؤية، السمع هو كل الحواس بالنسبة لي، هو المترجم الوحيد

للمشاعر التي يصلني منها ما ألتمسه بحدسي، لم تلحظي أن الطفل عندما يولد يسمع قبل أن يرى، ألم تلاحظي أن السمع هو الفاعل المساعد على النطق والكلام، ألم تلاحظي أنه في القرآن الكريم يقدم الله سبحانه السمع على الإبصار، والصم بُكم لا ينطقون، ولا يستطيعون أن يعبروا عن أنفسهم ولا يفهمون الآخرين؟! كانت كأنما توحي إليَّ أن ما فقدَته قليل إزاء ما تملكه من حاسة السمع التي تتضاعف عند من يفقدون الرؤية، إن السمع أهم من الإبصار .

لم أتمالك نفسي واحتضنت أمي ثم أخفيت اضطرابي من أجلها قائلة :

طه حسين.. لا يرى ولكنه أبصر الحب في كل أعماله وكتاباته، وعبر عن ذلك لزوجته سوزان بكلمات أشبه بقصيدة حب : «بدونك أشعر أني أعمى حقا. أما وأنا معك، فإني أتوصل إلى الشعور بكل شيء، وأني أمتزج بكل الأشياء التي تحيط بي ». وعندما رحل هو عن العالم، كتبت هي كتاب «معك » ترثي نفسها فيه «ذراعي لن تمسك بذراعك أبدا، ويداي تبدوان لي بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق في اليأس، أريد عبر عيني المخضبتين بالدموع، حيث يقاس مدى الحب، وأمام الهاوية المظلمة، حيث يتأرجح كل شيء، أريد أن أرى تحت جفنيك اللذين بقيا محلقين، ابتسامتك المتحفظة،

ابتسامتك المبهمة، الباسلة، أريد أن أرى من جديد ابتسامتك الرائعة »..

قالت أمي بعد أن انتهيت من كلامي عن طه حسين محاولة تخفيف صعوبة عدم إدراك بعض الأشياء بأعيننا : الحب يا ابنتي هو ما نعانيه دائما، حتى حينما نعتقد أننا لا نعاني شيئا .

قلت -في محاولة لتغيير مجري الحديث-: رأيت عم محمد متولي اليوم.. أمين المكتبة وأنا في طريقي للتسوق .. هل تذكرينه؟

- لا أملك غير الذكريات يا حبيبتي .

ثم استطردت: أذكره وأتذكر كل مساعداته لك.. خيرا، ماذا حدث له؟

- لم يحدث له شيء، هو فقط على وشك الإحالة إلى المعاش، أخذ يتحدث معي عن الحياة والزواج والوحدة والأطفال، أثار في داخلي شجونا مبهمة، لكنني لست تعيسة، بالعكس أنا راضية تماما بحياتي والعيش في سلام نفسي بعيدا عن العالم الخارجي، أقصد العالم خارج بيتنا يا أمي، ولا أريد شريكا يقاسمني في حبك أو يبدد خلوتي مع كتبي، العالم كله بين يدي بلمسة واحدة لكتاب .

قاطعتني: تعرفين أنني أحببت القراءة طوال ما كنت قادرة عليها، أما بعد افتقادي للبصر، لم أشعر بالعجز بل أعطاني العمى فرصة للتأمل أكثر، الفقد يا «مي » علمني القيمة، قيمة الحياة وعدم التفريط في أية لحظة حلوة أو مؤلمة تمر في حياتي، ورغم كل استمتاعي بالقراءة، الحياة ليست الروايات يا حبيبتي، الحياة تشابك وتعامل واختلاف وفشل وإخفاقات وفرح ونجاحات، الحياة سلسلة متشابكة من الحلم والواقع، وأنت اخترت الخيال، وهذا يجعلني أخشى عليك من الهواء الطائر من أمام عيونك الحلوة. أطبقت على كفي :عم محمد يا «مي » محق في كلامه .

دنوت منها فتمكَّنت من تحسس وجهي بلمساتها الحنونة قلت لها: صدقيني أنا بخير، دراستي في كلية الألسن جعلتني أعشق اللغات، والآداب المترجمة، وغير المترجمة أيضا، التي مهدت لي الطريق بهدوء إلى عوالم أحببتها وحلمت بها كثيرا، حتى صارت الروايات بمثابة جناحيَّ للطيران إلى سماوات كل بقاع العالم أجوبها وأنا بجوارك لا أبرح مكاني .

لم أندم على عدم اشتغالي بالجامعة لأن مهنة التدريس لا تستهويني من الأصل، إلا لو اخترعوا مهنة جديدة في مدارسنا «لقراءة الروايات » ، أقوم بحصص مطالعة خارج المقرر الدراسي، أختار الرواية وألقيها على

الطلبة. لو كانت هذه الوظيفة موجودة في مناهج التدريس لم أكن لأتنازل عنها أبدا .

قالت وهي تربت على يدي: ما زال الخيال يسيطر على أفكارك .. القراءة في حد ذاتها متعة لا تقارن بمتع كثيرة في الحياة ولكن علينا أن ندرك أن الواقع يختلف تماما عما يأتي به مؤلف الرواية ويوقعنا في شباك خياله .

زاد التصاقي بأمي حتى كادت أنفاسها تعانق أنفاسي وأنا أهمس في أذنيها: الحياة رواية ضخمة كل واحد منا له دور أو سطر أو فصل أو ..

لم تجعلني أكمل كلامي و قاطعتني: المهم ألا تكون أدوارنا كومبارس.. اختاري لنفسك دورا مناسبا شرط أن يكون على مقاس أحلامك. العمى يجعلنا ندرك أشياء لم نكن نراها لو كنا مبصرين، كنت أرى في أبيك حنانا وعطفا يفوق خياناته، كنت أعرف أنه يحبني وأنه في آخر اليوم يعود لي لأني سكنه الحقيقي،وكل النساء اللاتي يلقين بأجسادهن عليه ليس لهن غير أمواله وصيته وصولاته في سوق التجارة التي ورثها عن جدك رحمة الله عليهما، كلهن غانيات، أنا حبه الوحيد، كان يبكي في حضني كلما واجه خسارة أو فَشِل في تجارته ويطلب أن أسامحه كلما وقع في خطيئة من خطاياه، وفي كل مرة كنت أقف بجواره أسامح وأغفر .

تسقط دموع ساخنة على وجنتيها الناعمتين، وأنا أصدق أمي وأكذِّب أحاسيسي.كل مرة أجلس فيها معها أعيش قصة حقيقية أروع من قصص رواياتي التي أحتمي بها من العالم من حولي، قصص أمي أحداثها واقعية، مسحتُ دموعها الساخنة بكفي فقبلتني وضمتني إلى صدرها وهذا ما لا يستطيع أن يقدمه لي أبطال الروايات، ثم نهضتُ وتركتني .

دخلت غرفتها وأغلقت خلفها الباب، كي تخفي إحساسها، بالخواء من حياة فارغة لم يبق فيها أحد غيري، بعد رحيل الأحباء من أقاربها، الذين لم يتبق منهم غير خالي أحمد الذي اختار الغربة في أستراليا وخالي حسن الذي تزوج من امرأة غيور لا تطيق أن تقترب منه امرأة حتى لو كانت أخته راجية، أما من ناحية أبي فلم أنعم بأعمام، فقد كان أبي وحيدا ربته زوجة أبيه بعد وفاة جدتي وتركت له ميراثا وصل إليّ وحدي لأني ولدت كأبي وحيدة بلا أخوات أو إخوة، وإن كان هذا أمرا يضيق الخناق عليّ مع أمي في بيتنا الكبير الذي يحتاج لجهد كبير للشعور بالدفء والطمأنينة الهاربة فيه، التي نحاول استعادتها كل ليلة بمصاحبة الكتب والحديث عن الذكريات بجوارمدفأة صغيرة في الشتاء وأجهزة التكييف ومراوح السقف في قيظ الصيف ..

تركتني أمي وحدي بين كتبي وأفكاري، أستجدي النوم، ويستعصي، وأقلب في الكتب، وأغلقها في حالة من الأرق والسهاد ليس لهما سبب محدد غير أني أفكر فيما قاله عم محمد متولي وأمي راجية منصور .

هل الزواج مسألة حيوية إلى هذا الحد؟ لماذا يصيب أمي بكل هذا القلق، ماذا لوكنت تزوجت ولم أوفق، أو تزوجت رجلا لا يهوى ما أهواه، ولا يشاركني فيما أحب، وكان مثل كثير من الرجال الذين يرون في الزواج امرأة تقوم بتقديم الخدمات الأساسية في حياتهم. لو فُرِض وتزوجت هذا النموذج من الرجال لن أعيش معه تحت سقف بيت ليوم واحد، أنا لست مثل أمي التي تحملت أبي بكل عصبيته، وهوسه بالنساء خارج البيت، ماذا لو تزوجت رجلا مثل أبي؟! لا أتخيل جحيم معاناتي .

يداعب النعاس جفوني بينما أسمع صوتا يأتيني من خلف شرفتي الجانبية، هل هو حفيف الأشجار وهي تتصدي لرياح الخريف، أم أراه زئرا خفيا، يأتي ليؤنس وحدتي؟، يعلو الصفير وتزداد ضربات قلبي .

في ظلام غرفتي تتجسد مخاوفي، بين أشباح تعكسها أضواء الشارع الذي تطل عليه غرفتي من الجهة الأمامية، وأصوات الأشجار من الجانب الخلفي، هل أبطال رواياتي سمعوا حواري مع نفسي، أم أنها هلاوس ليلية، لابد من شد الغطاء فوق رأسي لأخفي كل هذه الخيالات .

- ما الذي جاء بك ليلا إلى غرفتي أيها الغريب؟

- جئت أحررك من قيودك؟

- من قال لك إني مكبلة بالقيود؟

- لم يقل لي أحد ولكني أعرف، سمعت نداءك الخفي فجئت ألبي طلبك

- لم أناد أحدا! ولم أستدع أحدا؟ من أنت؟

- أنا الفارس المنتظر. جئت لأحقق لك كل أحلامك، أنا الرجل الذي تحلمين به، أنا من تبحثين عنه، أعشق القراءة، وأكتب الروايات، وأحب المرأة التي تقرأ؛ لأنها تستطيع أن تجعلني أعيش كل ليلة مع حكاية جديدة من حكايات ألف ليلة وليلة .

- ألست أنت شهرزاد الحكايات؟

- ألست أنت الرجل الذي يقايضني على حياتي مقابل الحكي؟ !

يقترب الغريب من فراشي ويتلمس جسدي الممدود على سريري، وأسمع صوت أنفاسه كحفيف الأشجار الخلفية، يقبلني خلف أذني، ويشد الغطاء حولي ليتحد جسدانا، وأرتعش بين يده، وأغيب في نوم عميق، أستفيق منه في صباح اليوم التالي، على ضوء أشعة الشمس الذي تسرب من بين دفتي نافذتي المواربة،

تذكرت أنني لم أُحكِم غلقها ليلة الأمس، حينما تركت أمي تذهب لفراشها، عدت لأقلب في رواياتي المبعثرة خلف سريري وعلى جانبي الطاولة، يسكن بجواري مجلد قصص ألف ليلة وليلة مفتوحًا على مصراعيه، نسيت غلقه قبل أن تغفو عيناي .

5

السرير ملجئي الروحي .

حاولت شهرزاد أن تروي لي حكاية واحدة من حكاياتها الألف، لكن النوم استحال أن يزورني، كأنه أصر على هجري إلى الأبد، استلقيت على سريري أتقلب على فراشي أرقا، مفتوحة العينين، أعد في سري من واحد إلى مائة ثم إلى ألف ثم إلى ألفين مثلما كنت أفعل وأنا صغيرة ولا يأتي النوم، كانت أمي تقول لي: عدي من واحد لعشرة سوف يجيء النوم محملا بالأحلام، كنت أفعل بنصيحتها ويأتي قبل أن أصل إلى رقم اثنين ملاك حامِلٌ طبقا من الأرز باللبن، أعد الليلة الأرقام حتى أصل بالأرقام إلى الألف بعد المائة ولا يأتي النوم .. يتدلل طول الليل كراقص باليه يتلاعب بجسده أمام عيني ولايهدأ بين جفوني..وتنفتح في مخيلتي سيناريوهات الصباح كشريط سينمائي صامت مع عم محمد متولي، و دامع مع أمي، يتلاشى وعيي مع الظلام.. تختبئ الأحلام وراء ستائر نافذتي المطلة على الحديقة الخلفية للبيت، تتجسد خيالات أبطال الروايات كل ليلة في صور ملونة وفلاشات أبيض وأسود بين غفوة ووقوع في أحلام المنام :

أرى رجلا عجوزا لا يشبه أبطال الروايات، يأخذني من يدي.. أسير وراءه مستسلمة بملابس النوم.. يسألني: هل أتعبك السير؟

أجيبه: لماذا أنا هنا؟ يخبرني: ليس لدي بديل ! إذا أحسست بالتعب يمكن أن أحملك فوق ظهري ..

العجوز يثير دهشتي: كيف يحملني وهو يتكئ على عصاه الضعيفة يتحسس طريقه بصعوبة ..

تبدو صورة المكان الذي أخذني إليه العجوز ضبابية لإحدى جزر الحكايات، طمأنني بابتسامته الملائكية وذقنه البيضاء وعينيه الضيقتين كعيني عم محمد متولي: لا خوف، المكان هنا آمن ولا داعي للقلق.. اقتربنا من تلال من الأشجار الملتفة حول بعضها كغابة في جزيرة منعزلة .. بدت كأحد قلاع الأحلام في الروايات، أمشي بتلعثم الغريب في بلد غير معلوم، مرتجفة الخطوات، قابضة على ذراع العجوز بقوة خوفا من التوهان، تتلاحق أنفاسي كلما تعمقنا في الطريق، مطبات عثرات، ألمح من بعيد مبنى مشيدا كقصور الملوك، هالني ما رأيت من أضواء احتفالية ، صوت موسيقي راقص يزداد كلما اقتربنا من مكان الاحتفال، أصوات من الضحك والبكاء تتعالى كمصحة للمجانين، أخافتني هذه الأصوات التي تشبه أصوات أبطال حكايات الرعب؛ دنوت من القصر ؛ دلفت لقاعة الاحتفالات، رأيت رجالا ونساء وأطفالا يجلسون في

الصفوف الأمامية يبدو عليهم ملامح الثراء والارتياح بملابسهم الفاخرة ومقاعدهم الوثيرة، وناس يشبهونهم ولكنهم ليسوا مثلهم.. رأيت وجوها تائهة بعيون زائغة يراقبون هولاء الناس ولا يملكون مقاعد في هذه القاعة الضخمة التي تخلو منهم وتمتلئ بأطباق الطعام بكل ما لذ وطاب ..

لمحت رجلا سبعينيًا يجلس غارقا على كرسيه الملكي الضخم، يرتدي ملابس ملكية وتاجا ذهبيا مرصعا بالمجواهرات كتيجان الملوك، أسمع ضحكاته وهمساته بين حاشيته التي ترتدي ثيابا أكثر فخامة من ملابس الأثرياء في مشهد يفوق الحكايات .

أثار المشهد في نفسي دهشة واختناقا معا، طلبت من العجوز أن يعيدني إلى غرفتي، بحجة أنني حافية القدمين وأرتدي ملابس النوم التي لا ترقى بهذا الاحتفال، العجوز لا يعيرني أي اهتمام كأنه لايراني ولكنه طلب مني : أن أنتظر ولا أتعجل .. إلى أن أستمع إلى خطبة الملك .

رجوت العجوز أن يعيدني إلى عالمي بين دفتي الكتب والروايات.. قال بلا اهتمام: أنت تعيشين الخيال في الكتب والروايات.. وأشار بيديه تجاه الحفل: هذه هي الحياة الحقيقية .

يرفض توسلاتي ودموعي التي بدأت تنهمر بعد نهاية الحكاية.. أسمع همسا ضعيفا من خلفي يتوسل لطلب تذوق الطعام..التفتُّ نحوه وجدت امرأة عجوزا.. ترفع يديها باكية تطلب فتات الطعام .. لم يلتفت لندائها أحد ..

يظهر السلطان أمامي فجأة.. يختفي الشيخ العجوز.. وتبقى المرأة الضعيفة تكرر توسلاتها في طلب الطعام و.. يعدها الحاكم !

يختفي العجوز والمرأ ة والسلطان !

استيقظت على لفحة هواء باردة سرت في أوصال جسدي فأصابتني بقشعريرة.. كنت شبه عارية، جذبت الغطاء على جسدي، حاولت معاودة النوم، لكنه استحال، كان صوت الموسيقى المنبعث من غرفة أمي قادرًا على إفاقتي من حلم المنام . كان لحن «شتروس » الخالد «الدانوب الأزرق » ، يكفي أن يزيح تخاريف المنام ، اتجهت نحوغرفة أمي.. لم تشعر بوجودي، ألصقت جسدي بها فتحسست وجهي وقبلت رأسي، ألقيت بنفسي بين أحضانها متلمسة حنانها كرضيع جائع لم يذق طعام الأحلام .

قلت لها هامسة: اليوم دوري في تحضير الإفطار، ماذا تأكلين؟

قالت وهي مازالت تحتضنني: نمت كويس؟ !

قلت: طول الليل كنت في قصر ملك عظيم .

ابتسمت: جميل.. هذا معناه تغيير في حالك .

- ماذا تقصدين؟

- القصر في الأحلام يعني حياة أفضل، ولقاء الملوك معناه أنه سيكون لك شأن كبير .

احتضنتها وسرنا نحو المطبخ متأبطتين، همست في أذنها: أنت قصري المنيف وأحلامي الكبيرة.. ثم إنني لم أتناول طعام الملوك، لأنه انتهى قبل أن يصلني و الملك وعد المرأة العجوز بالطعام ولم يعدني، دعيني أعد لك إفطار الملوك .

ضحكنا كطفلتين تلهوان في ساحة البيت الفسيح، أفلتت من بين حضني وأخذت تلملم شعرها المنسدل على كتفها، جلسنا على مائدة الإفطار كصديقتين قلت لها: ما رأيك أن نذهب معا إلى المركز التجاري لشراء بعض الملابس الشتوية، الشتاء دخل علينا فجأة، ولا ينبغي أن نقابله هكذا بملابسنا القديمة .

ابتسمت وربتت على يدي: اذهبي أنت، فلدي أشياء كثيرة مبعثرة أريد ترتيبها في حجرتي .

لا أعرف ما الذي تقصده أمي بانشغالاتها..التي أحيانا ما تثير فضولي في مكوثها لساعات طويلة في غرفتها، تقلب في أوراق وتتلمس سطورها بأناملها كأنها تقرؤها على طريقة برايل وهي كتابات عادية، وألبومات صورقديمة لمحتُها يوما تجمعها وتضعها في صندوق خشبي مزركش بالصدف محفوظ داخل خزانة ملابسها، لم أجرؤ على فتحه أو محاولة قراءة ما به من أوراق تريد أن تخفيها عن العيون بما فيهم أنا ابنتها الوحيدة. على قدر اقترابنا وحياتنا المشتركة إلا أنني أحترم خصوصيتها مثلما تفعل معي .

أخذت سيارة أبي «الأوبل » القديمة، الإرث المتحرك لنا بعد وفاته، كان الطقس خريفيا يحمل بعضا من نسمات الشتاء المنعشة، كل ما يحيط بي يدعو إلى التفاؤل والانطلاق وكسر الأسر الذي أكبل به روحي في غرفتي المكدسة بالكتب والأسطوانات والصور، تركت نافذة سيارتي مفتوحة كي ينعم شعري الذي تداعبه الرياح المنعشة بالحرية، سرى بداخلي إحساس لطيف بلا سبب، ربما حديث أمي عن تفسير الحلم، وربما كان صوت أم كلثوم الذي انطلق من مذياع سيارتي وهي تشدو بكلمات رامي :«أعطني حريتي أطلق يدي.. إنني أعطيت ما استبقيت شيئا »..

..... وأتذكر حلم المنام .

أغرق في الضحك بيني وبين نفسي، بعيدا عن الحرية والقيد، أنا لدي حريتي ولكن لا أستطيع أن أطلق يديَّ لأن أمي مسئوليتي ولا يمكنني أن أتركها وحدها في ظلامها ووحدتها ...

لم أشعر بالوقت الذي مر منذ لحظة خروجي من بيتنا إلى أن وصلت إلى أحد المراكز التجارية الكبري بالقاهرة الجديدة، مكان فخم، أنيق، تحيطه الورود والأشجار بتنسيق مذهل من كل الجوانب، نافورات المياه المتدفقة بأشكال وألوان الطيف تتوسط ميادينه، أرى فيه أناسا لا يعيشون بيننا ولكنهم منَّا وآخرين يتطلعون للذهاب لهذا المكان للفرجة فقط، وأناسًا لا يعرفون بوجوده من الأصل.. كأني أعيش في بلدين، بلد داخل بلد، المنطقة الوسطى التي أنعم بالعيش فيها تمكنِّي من رؤية العالمين باندهاش، عالم يسكنه الأغنياء، وآخر يسكنه الفقراء، وبينهما طبقة معلقة بين السماء والأرض، لا تتبع أحدا، تعاني وحدها ولا أحد يسمعها ..

لمحت زحاما شديدا في المدخل الجانبي للمركز التجاري الذي أنتوي الولوج إليه، تخيلت أنَّ هناك أوكازيونًا أو مهرجانًا فَنِّيًا،أرى تجمُّعات كبيرة من الشباب والشابات، يتزاحمون على باب المتجر اقتربت منهم وجدت صراخا وزحاما وتخبطا وصعوبة شديدة في اجتياز المكان.. عرفت أن هناك حفل توقيع رواية للكاتب «سليم علوان » ، وأنه موجود بالفعل في قاعة

مكتبة «اقرأ » لتوقيع الرواية لقرائه.ماذا بعد، وهل يستدعي كل هذا الزحام الشديد، ومن الشباب؟! مسألة غريبة، أعرف أن رواياته سياسية،تاريخية، جافة ليس لها شعبية كبيرة هكذا! من أين جاءت كل هذه الجماهير الغفيرة من الشباب؟ !..

اخترقت الزحام بحذر..فسمعت فتاة تتحدث لصديقتها: قرأت عمل «سليم » الأخير؟، قالت لها: قرأت حوالي ستين صفحة، ردت عليها: إنهم يقولون: إنها قصة حقيقية هو البطل في الرواية .

- معنى هذا أننا سنقرأ رواية مختلفة .

- يعجبني أسلوبه وأفكاره التي يصوغها بلغة مختلفة عما كتبه من ذي قبل .

- دعينا نرى ماذا سيقول في ندوته اليوم؟

أثارت الفتاتان فضولي لمعرفة ما تدور حوله روايته الجديدة التي يقال إنها رواية عاطفية، وهو الذي لم يكتب قصة عاطفية في حياته!، ربما تكون مثل ما سمعت أنها «تجربته الشخصية ».

حاولت اجتيازطوابير التوقيع، تمكنت من رؤيته بصعوبة بالغة، بدت ملامحه كرجل خمسيني، وسيم، أنيق، شعره الرمادي يضفي عليه وقارا وجاذبية، يخفي عمره.. تسمرت أمامه وهو منهمك في التوقيعات

المتتالية، وعلى شفتيه ابتسامة ثابتة للجميع، انسحبت من أمامه قبل أن يلاحظ وجودي، كنت الوحيدة التي لا تحمل روايته،لأني أردت أن أراه فقط، وعدت من حيث أتيت، راودتني فكرة اقتناء هذه الرواية، فأنا لم أقرأ له إلا رواية وحيدة من فترة بعيدة ولا أذكر تفاصيلها، ترددت كثيرا في شراء روايته، لكن كاشير المكتبة حسم الصراع بداخلي حينما وجدت نفسي أمامه وسألني إذا كنت أرغب في الشراء ووجدت نفسي أجيبه: أكيد، واشتريت الرواية. مشيت دون أن أحظى بتوقيع الرواية مثل الكثيرات، اللاتي كن يتهافتن عليه من أجل شرف الحصول على توقيعه، أما أنا لا أعرف ما الذي دهاني لم أفعل..ربما ذابت رغبتي من هول عشاقه! وربما لم أرد أن أكون مثلهن !

طول الطريق..أفكر في سر هذا الزحام حول أول عمل عاطفي لروائي يكتب روايات نوعية، لها جمهور خاص كما أتصور؟! ما شغلني أكثر طلتُه بين الزحام كنجم جماهيري، تتسابق عليه الفتيات.. وخطر على بالي سؤال بديهي: لماذا لم تلفت انتباهي كتاباته من قبل؟، وأنا التي لا تدع كتابا يقع بين يديها إلا افترسته؟ سؤال غريب! وهل يمكن لإنسان أن يقرأ كل ما يُكتب من روايات وكتب؟ يالي من مهووسة؟ وزاد من هوسي ذلك الزحام الذي لا أجد له مبررا؟ غير الشهوة لاقتناء ما هو مرغوب من كاتب استطاع بمهارته الشخصية وعلاقاته السياسية أن يحظى بهذا الاهتمام من جانب شباب

مهووس بكل ما يسير عكس التيار في مقالاته وآرائه التي تثير جدلا من وقت لآخر .!

عدت إلى البيت في ساعة متأخرة من النهار، دخلت غرفتي صامتة دون أن تشعر أمي بوجودي، غيرت ملابسي وأعدت ترتيب أولويات الكتب التي سأبدأ في قراءتها، وضعت روايته أعلى القائمة، وأنا على حالي بالانشغال بترتيب أولوية قراءة الكتب والروايات، سمعت خطوات أمي تتجه نحو غرفتي، نهضت مسرعة لأساعدها في فتح باب الغرفة قبل أن تتلمسه بيديها، ساعدتها في الولوج على مهل .

بعد أن اعتدلت في جلستها بادرتني قائلة: متى جئت؟

قلت: منذ قليل، لم أسمع صوتا في البيت، ظننت أنك نائمة .

- اشتريت ملابس جديدة؟

قلت بفرح طفلة: اشتريت رواية.. وحكيت لأمي ما كان في المركز التجاري من زحام الشباب وحديث الفتاتين .

وصل إلى سمعي من تمتمات أمي: رواية.. ما الذي جعلك تتراجعين عن شراء ملابسك الضرورية، وأنت لديك العشرات من الروايات التي لم تُقرأ بعد؟ !

قلت بسعادة لمسَتها في صوتي: رواية «سأحبك للأبد » لسليم علوان .

ما إن وقع اسم «سليم علوان » على مسمع أمي حتى تغير لون وجهها وصوتها: هو لسه عايش وما زال يكتب !!..

يعني لم تشتري ملابس؟ !

قلت: إنهم يقولون إنها قصة حياته .

- حياة من؟

- حياة «سليم علوان » ، هل قرأت شيئا له؟

- لم أقرأ له شيئا، ولا أريد؟

تركتني أمي في حالة دهشة وحيرة دون إجابات واضحة..لم أسمعها تتحدث عن كتاب أو رواية أو مؤلف بمثل هذه الحدة إلا إذا كان هناك سر لا أعرفه !.

أخذت أقلب في صفحات الرواية ووجدت على الغلاف الخلفي صورته مع بعض أعماله الروائية وكتبا نقدية ومجموعتين قصصيتين، وحصوله على جوائز أدبية محلية وجائزة واحدة عربية، أخذت أتحسس الغلاف الأمامي وألمس حروف عنوان روايته بأصابعي «سأحبك للأبد » ، لا أعرف لماذا تذكرت في هذه اللحظة قول «مي زيادة » التي سمتني أمي على اسمها

كلماتها المأثورة عن الكتاب بأنه «المكان الوحيد في العالم الذي يمكن أن يلتقي فيه غريبان، بحميمية كاملة ». عبارة معبرة عما يجول بخاطري في هذه اللحظة عن «سليم علوان ».

شدة الفضول جعلتني أبحث في تاريخ «سليم علوان » نفسه، حدة أمي عند سماع اسمه وعدم رغبتها في قراءة شيء له، هز صورته في خيالي. انطباعاتي الأولى غالبا صحيحة، أستطيع أن أفرق بين العمل الروائي الجيد الذي أستكمل قراءته من العمل الذي أستبعده من غلافه أوحتى من كلمات الإهداء الأولى، «سليم علوان » أعطاني انطباعا بصدقه من اللحظة الأولى، وخاصة بعد أن رأيته اليوم وجها لوجه، أخذت أقلب صفحات الانترنت حول كل ما كتب من رواياته التاريخية، قرأت عشرات المقالات النقدية حول رواياته، وأكثر ما استوقفني قصصه القصيرة الساحرة، قرأت بعضا من سطور رواياته، وجمعت العديد من مقالاته اللافتة، توقفت عند أحد رواياته التاريخية التي تحكي عن العصور الرومانية برومانسية تخلب العقل والقلب، شحذ طاقتي على إعادة قراءة التاريخ وليس كتاباته التاريخية فقط، كيف أمتلك براعة الكتابة في التاريخ بكل هذه العذوبة .

فعل القراءة له سحر خاص، يصنع علاقة حميمية وجسدية مع الكتاب كما يرى «مانغويل » في كتابه

«تاريخ القراءة » ، العين تجمع الكلمات على الصفحة،والأذن ترجع صدى الكلمات المقروءة، والأنف يشم رائحة الورق والصمغ والحبر والورق المقوى أو الجلد، والأنامل تتحسس الصفحات الناعمة أو الخشنة، والتجليد الناعم أو القاسي، وحتى حاسة الذوق تشارك في العملية عندما يرفع القارئ إلى فمه الإصبع الموجودة على الصفحة «الطريقة التي سمم فيها القاتل ضحاياه » في رواية «أمبرتو إيكو » «اسم الوردة ».

تداعيات وجود أول رواية بين يدي لمؤلف أعرف عنه القليل،رغم شهرته الواسعة، يثير بداخلي شعور حب الاستطلاع ومعرفة كل شيء عن حياة «سليم علوان » الذي بات شخصا يؤرقني ولا أعرف لماذا؟

ما الذي يعنيني فيه حتى يجعلني مهتمة به إلى هذا الحد؟ !

وضعت رواية «سأحبك للأبد » إلى جواري على طاولة الروايات التي أطالعها عاجلا. وواصلت القراءة عنه، لقد كان جوجل كريما جدا معي، عندما قدم لي كل المعلومات التي أريد معرفتها عن «سليم علوان » ، منذ أن ولد إلى أحدث أعماله التي بين يدي مرورا بتفاصيل حياته العامة، كل الانتقادات والتشكيك حول بعض كتاباته، كان حاضرا بكل الأوجه، النقد قبل المديح، ما أثار فضولي حجم الهجوم عليه فاق المدح، ولم أستطع أن أتخذ موقفا ضده أو معه فأنا لا أعرفه شخصيا ولم

أقرأ له شيئا بعين النقد، كل ما أعرفه عنه في حدود العام وليس الخاص .

وسط كل هذه الحكايات والقصص المنشورة عنه لفتت نظري قصة غريبة تؤكد على أن أحد أعماله مسروقة من عمل روائي لروائي أجنبي معروف مع تغيير بعض الأحداث الطفيفة واستبدال البطل في الرواية بامرأة، لكن نفس الفكرة تقريبا هي نفسها في العمل الأجنبي، أصابتني الدهشة من هذه الحكاية !!

من أين تأتي الجرأة لكاتب معروف أن يسرق رواية من كاتب آخر معروف، الذي يحدث في السرقات الأدبية أن كاتبا مشهورا يسرق كاتبا مغمورا، فلا أحد يسمع الصوت الضعيف الذي غالبا يكون صاحب الحق، لكن أن تتم السرقة بين كاتبين معروفين فمن المؤكد أنها جريمة مفضوحة .

ماذا لو كان محترفا للسرقة؟ !

على أية حال «سليم علوان » يكتب رواياته التاريخية بأسلوب رومانسي جذاب، وحرفية مبدع يمتلك أدواته، وقعت في عشق كتاباته من النظرة الأولى!، لكن هل يمكن أن نقع في حب شخص من النظرة الأولى، أم أن الأفلام الخيالية والقصص الرومانسية والأغنيات، هي التي أقنعتنا أنه ممكن؟ قرأت يوما :«إن الحب من النظرة الأولى وهم كبير » مثل ما قال إحسان عبد

القدوس في روايته «الوسادة الخالية » ، وأن ما يحدث ليس حبا وإنما انجذاب لا أكثر للشكل وإعجاب شديد نطلق عليه عن طريق الخطأ «الحب من النظرة الأولى »لأن الحب يحتاج إلى وقت.. وأنا لم أره لأكثر من دقيقة واحدة إن لم يكن أقل ! ولم أقرأ له غير رواية واحدة لا أذكرها، ما هذا الهذيان الذي علق بذهني ويسيطر على مشاعري المتلهفة على الحب؟.عموما كتاباته تشبه طلته إلى حد كبير، حينما لمحته لدقائق معدودة، وهو محاط بالمعجبات وهن الأكثرية، اللاتي كن يتهامسن عليه أكثر مما يتهامسن على الرواية، التي ربما تكون رواية مسروقة !.

ما لي أتخذ منه موقفا سلبيا وإيجابيا في لحظة واحدة، ما هذا الشعور المتناقض الذي يتملكني تجاهه؟

ربما يكون رد فعل أمي على ذكر اسمه جعلني أشعر بإحساس سلبي نحوه، ورؤيته وسط جمهوره جذبني ودفعني إلى الشعورالعكسي تجاهه .

لن أنساق وراء توهماتي وأحاسيسي الأولى ...

.. ستكون روايته هي الفاصل بين إحساسي وحقيقته كروائي

أسمع صوت خطوات أقدام أمي تتجه نحو باب غرفتي لعلها تريد شيئا أو نسيت أمرا تريد أن تخبرني به،

انتفضت من مكاني.. وجدتها تتحسس طريقها نحوي كعادتها، أسرعت إليها، أمسكت بيديها وقبلتها، هل تريدين شيئا؟

-أريد أن أتنفس بعضا من الهواء النقي، أشعر باختناق في أنفاسي، أريد أن أخرج للحديقة قليلا لعل حالتي تتحسن، قلت لها: ماذا بك؟. أخبرتني أنها بخير، كل ما تريده فنجان قهوة مضبوط والجلوس في الهواء الطلق.. أخذتها على مهل ودلفنا معا إلى الحديقة أجلستها على مقعدها المفضل، الذي كان يجلس عليه أبي ومن قبله جدي وهو كرسي مريح عتيق مصنوع من الخيزران المطلي «بالفلوت » الذي يحافظ عليه لسنوات طويلة دون التأثر بعوامل الزمن، تفضله أمي حينما تريد أن تروي بعضا من حكاياتها وذكرياتها حتى أنني أسميته «مقعد البوح ».

قلت لها: تتناولين القهوة قبل الغداء؟ !

ردت بلا اكتراث: لست جائعة الآن .

بعد أن اعتدلت في جلستها تركتها لإعداد القهوة، وإذ بالتليفون يقاطع خطواتي للمطبخ، ليأتي صوت عم محمد متولي أمين المكتبة، ليخبرني بأنه يريد مقابلتي لأمر ضروري .

قلت: خير، هل حدث شيء؟

أجابني : خيرا.. غدا سأحكي لك .

لم يشغلني طلب عم محمد متولي، خاصة أن نبرة صوته كانت تبدو عادية، لا تحمل أي شيء يثير القلق.. ربما وصلته كتب جديدة، يريد أن يطلعني عليها كعادته أو ربما يكون لديه أمر يخصه يريد أن يأخذ رأيي فيه .

أغلقت الهاتف بلا قلق .

ما يشغلني حاليا هو أمي..وما يشغل بالها .

عدت للمطبخ أعد فنجان القهوة.. أفكر في مزاج أمي المتقلب الذي يثير قلقي فلا أحتمل أي معاناة تصيبها بسببي أو بغيري.. هي الشخص الوحيد الحقيقي الذي أستمد منه وجودي.. لا أقبل أن يتعكر مزاجها لأي سبب مهما كان شأنه..إنها منبع راحة بالي وسعادتي....و

جلست بجوارها صامتة أردت أن أحكي لها عن «سليم » وروايته ولكني تراجعت، خَشِيتُ من رد فعلها .

قلت لها : «هل فعلتُ شيئا أحزنك دون أن أعلم؟ أخبريني بكل شيء يحزنك »

- لا أحد يتمنى ابنة أفضل منك.. كل ما في الأمر أنني أحتاج أن أتنفس هواء طبيعيا خارج حجرتي، شعرت بالاختناق فجأة .

- سلامتك يا ست الكل ..

أخذت كفيها وقبلتهما ووضعت رأسي بينهما متمتمة :
«ليس لديك أحد غيري، وليس لدي أحد غيرك »

احتضنتني بشدة، وأومأت برأسها: أكيد حبيبتي

لا أعرف، لماذا ساورني الشك في أن أمي تخفي عني شيئا تقاوم البوح به؟ !.

ظلت صامتة وأنا أخترع حكايات في محاولة فك صمتها الرابض على وجهها بلا جدوى .

التزمَت الصمت وكأنها عاقدة العزم على عدم الكلام فالتزمت أنا أيضا الصمت .

ساد بيننا هذا السكون المترقب، ثم قطعت أمي صمتنا :

حبستك في البيت وحرمتك من الخروج مثل كل البنات في مثل عمرك، صرت السجن والسجان الذي حكم عليك طول العمر بالجلوس بجواري وهذا ليس عدلا .

فاجأتني بكلامها غير المتوقع، هل هذا ما كانت تريد قوله بالفعل؟

قلت لها: لماذا تتحدثين دوما في هذا الشأن ،كأنني في معتقل وكأن حياتي مرهونة على حريتي خارج هذا البيت، صدقيني أنا ياستي مبسوطة كده، أقسم لك إني سعيدة بحالي ولا ينقصني غير رضاك عني ودعواتك لي .

وفي مشهد تمثيلي أردت أن أخفف فيه عن قلقها المزمن :

«لو تعلمين أني كل ليلة أجوب العالم وأعيش حكايات وأرى أماكن لا تُتاح لأي أحد، كمثل حالي، أسافر إلى القمر، أذهب إلى المريخ، وإذا ناديت عليّ أكون في لحظة بجوارك، وضحكت..لكنها لم تعلق ولم تبتسم، ربَّتَت على كتفي وهي صامتة، ثم عاودتُ حديثي: الليلة سأبدأ في قراءة رواية «سليم علوان » ، تخيلي يا أمي إنَّ وراءه حكايات كثيرة .

قاطعتني : «سليم علوان » تاني !

- لو تخبريني حكايته، سأرتاح .

صمتَت قليلا ثم بدأت تحكي :

«سليم علوان » كان زميلي في الجامعة، خدع أقرب صديقاتي، تخلى عنها بعد أن وعدها بالزواج، إنه مخادع مثل ما يكتبه، إنني لا أحبه ولا أحب قصصه ولا سيرته، هو كذاب كبير. وليس كاتبا كبيرا.. كل حكاياته مزيفة، وقصصه ملفقة، وحياته كلها مصنوعة، كونه يمارس وجوده ككاتب كبير لا يعفيه من أنانيته واصطياد مصالحه من بين المحيطين به، إنه شخصية انتهازية واستغلالية .

أردت أن أقول لها: كل هذا!!.. كل هذه الصفات في سليم علوان، إنه لا يبدو كذلك ولكني خرست ولم أعلق على كلامها،لأنها كانت شديدة الانفعال وهي تتحدث عنه، وغالبا العصبية رد فعل عكسي للإحساس الحقيقي .

تمتمتُ في سري دون أن تسمعني : «طبيعي جدا أن تفشل هذه النوعية من العلاقات العاطفية بين الطلبة » ولكني لم أقل شيئا .

التزمت الصمت ..

أمي تمتلك قلبا طيبا، ولا أريد أن أجرح مشاعرها أو أتسبب في المزيد من أحزانها وقلقها .

كل ما استطعت قوله بعدما أنهت حديثها بكل تلك العصبية: معقول؟

هزت رأسها بعصبية: معقول جدا !

طلبت منها في محاولة فاشلة لتغيير الموضوع أن نذهب لنتناول غداءنا ونكف عن سيرة هذا الرجل الذي أثار غضبها، لكنها أبت وطلبت مني إعادتها إلى غرفتها، أوصلتها إليها ونحن صامتتان، بعد ما أخبرتني بأنها لا ترغب في تناول الطعام، اكتفت بقطعة الكيك التي تناولتها مع فنجان قهوتها على مقعدها المفضل .

عدت إليها بعد فترة للاطمئنان، وجدتها جالسة على حافة سريرها وأمامها صندوقها الخشبي الذي تحتفظ فيه بأسرارها، طرقت باب غرفتها استئذانا بالدخول، أحست بوجودي أغلقت صندوقها بسرعة كأنها تريد أن تخفي شيئا لا ترغب في أن أعرفه، لم أشعرها بما رأيت قلت لها: أعددت لك شايا وسندوتشا، قالت برقة: برضة أتعبت نفسك، ضعيهما بجواري واتركيني قليلا بمفردي. حاولت أن أستفسر منها عما يضايقها، لكنها أكدت لي أنها بخير، لم أرد أن أثقل عليها بأسئلتي وإلحاحي في معرفة أسباب حزنها الواضح على ملامحها لمجرد سماع اسمه؟ !

عدت لغرفتي عالمي الأثير، أفتش عنه من جديد في كل مكان، بعد ما قالته أمي عنه ، زاد إصراري على الغور في حياته ، سأبحث عنه خلف كل كلمة كتبها و بين كل حوار أجري معه، وفي كل برنامج تليفزيوني أو إذاعي تحدث فيه، لن يهدأ لي بال قبل أن أعرف حقيقة هذا الرجل الذي أثار حزن أمي وجذبني إليه في ثانية واحدة .. لابد أن أعرف من هو؟ وما هي حكايته؟ وماذا فعل بأمي؟ حتى تتألم كل هذا الألم بمجرد سماع اسمه. إحساسي يحدثني بوقائع غير التي حكتها لي أمي ..

6

لن أستعجل الحكاية .

المنتظرون للحب غالبا ما يصبحون عشاقا في لحظات التعارف الأولى، وأنا في بداية تعارفي عليه لا أملك غير روايته، الوحيدة مثلي.. العزباء كحياتي، سأبدأ معه بداية حيادية دون التأثربالكلام الشائع عنه، واستياء أمي من سيرته؟.. سأراه بعيدا عن كل الصور القريبة والبعيدة التي رأيته فيها، سأترك لنفسي العنان تقرؤه كصفحة بيضاء لم يخط عليها حرف .

أحتضن روايتك لأول مرة بين يدي.. نعم أحدثك أنت، أيها الغريب في حياتي القريب من حياة أمي.. المثير لشغفي في معرفة خباياك .

الليلة موعدي معك، لن أخبر أمي، بأنني سوف أقرأ روايتك «سأحبك إلى الأبد » دون أن يشاركني أحد، أريد أن أتعرف عليك بإحساسي، سأكون أنا وأنت وروايتك وحدنا طول الليل. قل لي قبل أن أشرع في القراءة، ولا أحد يرانا ولا أحد يسمعنا: إلى أين ستأخذني معك الليلة على متن روايتك؟ هل أنت كما تقول أمي كاذب كبير؟ أم أنت كما يخبرني إحساسي كاتب كبير؟ !

أهمس إليك: أنا على أتم استعداد إلى أن أذهب معك لآخر نقطة في نهاية الرواية، بكل الشغف والرغبة لاكتشاف حقيقتك فماذا عنك أنت؟، أتراني خرقاء، أم أنني في انتظار قصة حب جديدة، هل ستكون مثل بطل رواية «قصة حب » «لأريك سيجال » وتتمسك بحبيبتك لآخر نفس في حياتها؟ أم ستكون مثل حالات الحب المستحيل في رواية نجيب محفوظ «عصر الحب » حين حذرنا منه بأنه « علينا أن نضل طويلاً قبل أن نهتدي إلى أنفسنا » ،أو في ثلاثيته كما تراءى لبطل الرواية كمال عبد الجواد « أن الذين يحبون لا يتزوجون » ، أم أنها قصة تاريخية تحمل «الحب » في قلب الوطن، أم هي قصة حياتك كما سمعت في حفل توقيع روايتك.وأصبح أنا مجرد «شاهدة حضور » على أحداث الرواية؟

يا لجنوني !

لن أستعجل الحكاية .

«سأحبك إلى الأبد » كلمات تحمل سحر الحب، لكن فكرة الأبدية أكذوبة العاشقين ياعزيزي .

لا شيء يبقى للأبد .

لو كان عنوان الرواية « أحبك الآن » لكان أكثر واقعية، أحدق في عنوان الرواية، أتحسس الغلاف الذي يعكس

صورة بعيدة لحبيبين في طريق طويل على ممشى تحيطه الأشجار والورود متعانقين في «حالة رومانسية » مثلما أراه في اللوحات الفنية وفي الأفلام الرومانسية، ولا أجدها في واقع حياتي التي يملؤها الجفاف العاطفي الذي أعيشه بين صفحات رواياتي، أتذكر كلام أمي وحكاياتك المسروقة، أريد أن أدخل فضاءك الواسع دون خلفيات أو توصيات من أحد، أريد أن أمحو من ذاكرتي أي شائبة ضدك أو معك، أريد أن أقرأك بحيادية، وأنا في حالة تجرد كامل من أي ملابسات أو آراء مسبقة، سألقي كل الأقاويل خلفي وأبحر في عالمك بمفردي، بلا مجاديف غير حب الاستطلاع، ومعرفة الحقيقة ..

وقفت طويلا أمام الصفحة الأولى أتأمل إهداء الرواية الذي شغل تفكيري : «إلى التي أهدتني الحب كي أحيا، إلى من فتحت لي ذراعيها في ليل غربتي، إلى من كانت لأحزاني مرفأ، إلى الإنسانة العظيمة التي سأظل أحبها إلى الأبد » ؛ وتنتابني حالة من الغيرة، ويسري بداخلي إحساس باستيقاظ جزء غافل في حياتي، لم أنسق وراء تفسير الإهداء، كنت يقظة لهذه الحالة الاستثنائية للحب، أنظر إليها بتوجس رجل المخابرات لمتهم لم تثبت إدانته، من اللحظة الأولى التي وقعت عيني على كلمات السطر الأول وعقلي يحاول أن يربط بين أبطال الرواية بأشخاص حقيقيين، ومرة أخرى أتخيل روحي مكان بطلته التي تشبهني كثيرا، حتى في

ملامحي، وهذا أمر أثارني للغاية، توقفت عند لمحات كثيرة، أفيق بسرعة.. لا أترك لعواطفي أن تتحكم في قرار اتخذْتُه مسبقا بالحيادية، لم يحدث لي أني قدمت شروطا لنفسي قبل قراءة أي رواية مثلما أفعل الآن، ومع كل احتياطات الدفاع عن نفسي ضد أن يغرِّر بي بكلماته، لمست رقة وعذوبة الكتابة من الصفحة الأولى حتى صرت أعيد قراءة السطر الواحد مرتين وأكثر لرونق صياغته ودقة اختيار تعبيراته التي اخترقتني كصاعقة خاطفة .

هكذا أخذتني أحداث «سأحبك للأبد » أطوي صفحة وراء صفحة وعيناي مفتوحتان وعقلي يقظ وإحساسي نابض بكل حرف من حروف الرواية، نسيت وعودي مع نفسي، سقطت كل شروطي لمحاكمته أمام روايته، تحولتُ في لحظات إلى شاهدة إثبات على روعة الرواية وليس لديَّ أي دليل شك في إدانته بأنه سارق أو كاذب حتى لوكان صادقا في كذبه إلى حد التماهي. ما حدث معي لم يكن يحدث إلا بموازبة نافذتي الخلفية التي يطل منها كل ليلة بطل من أبطال رواياتي ليُؤنس وحدتي في ليالي عمري الباردة .

هكذا عشت مع بطلة روايته لحظات الحب والضعف، مارست مع بطله عواطف اللهفة والاشتياق، فلا شيء يعادل لهفة المشتاق للحب في رواية تشبه قارئها، ويشعر أنها كتبت من أجله، أحببت حالة البطلة التي

تشبهني إلى حد التطابق وكأنها أنا، ما أدهشني كيف استطاع أن يصف أحاسيسي بهذه الدقة وكأنه يعرفني؟! هل كتب الرواية من أجلي؟ أم أنه كتبها لامرأة تشبهني؟ ما هذه الحيرة التي أوقعني فيها هذا الرجل الذي أثار غضب أمي ولفت انتباهي إليه من النظرة الأولى .

مضى الوقت دون أن أشعر بالنعاس أو الملل في رواية خيبت كل توقعاتي، كنت أتمنى أن تتحقق تلك الخيبة المتوقعة لأنهي الأمر بيني وبين نفسي، ولكنها عكست كل الأقاويل وانحازت لأحاسيسي الأولى نحوه .

قاربت على الانتهاء من صفحاتها الأخيرة وأنا ممتلئة شغفا وحبا لقراءة المزيد من كتاباته التاريخية وغيرها من مقالاته السياسية التي وصفها البعض بأنها أضعف ما كتب، روايته التي ظننت أنه كتبها من أجلي أشعرتني بالقلق والتوتر والخوف، وبأنني أحتاج لمن أحتمي فيه من مخاوفي، أحتاج لحضن يضمني ولا يتركني للوحدة التي تعصف بي .

نعم أنا وحيدة في غرفتي أتحدث مع أبطال وهميين كل ليلة، متصنعة حياة صاخبة، لو كان لدي رقم هاتفه الليلة لم أكن لأتردد لحظة واحدة في مكالمته ومحادثته حول روايته، لديّ كثيرمن الأسئلة حول بطلته وما حدث لها في علاقة عاطفية غير عادلة، أردت

أن أدافع عنها وأبرر له موقفها وأشرح له كيف عانت في وحدتها.. ولكني لن أفعل لو أتيحت لي الفرصة .!

إنها هلاوسي الليلة مع أبطال روايتي الذين أنحاز إلى حزنهم وأوجاعهم وكأني أعيش حالتهم!.. هل مشاعر الحب في الروايات كما تقول أمي مبالغ فيها حقا؟، هل هي مشاعر كاذبة؟، كدت أصدق أمي، لكن رواية الليلة جعلتني أشقى بحسن ظني، ما الذي يراه «سليم » ورأيته أنا أيضا في بطلته .

أقول لنفسي: اسمعي يا «مي » ، الحياة ليست روايات وخيالات نصنعها لنثير بأبطالها الضوضاء من حولنا، الحياة أن نكسر القيود ونتحرر من داخل السجن الذي صنعناه بأنفسنا ونحن نتصور أننا أحرار، من الغد سوف أعيد ترتيب أولوياتي: لماذا من الغد، لن أنتظر سأكون ابنة للحياة خارج دفتي الكتب من الآن، سأعلن التمرد على الورق وأبحث عن حلم واقعي يخرجني من حالة السكون التي عشت فيها سنوات عمري الهاربة بحجة أن الكتب سوف تمنحني عالما موازيا، ما الذي وجدته في كلامه ليقلب حياتي رأسا على عقب هكذا؟، إنها رواية عادية مكررة حدثت كثيرا، ربما يكون التوقيت الذي قرأت فيه الرواية هو السبب، ما كل هذا الحريق الذي أشعله في خيالي؟!، سأعتذر لكل الروايات التي كنت قد بدأت قراءتها ولم أكملها، كي أتفرغ لإتمام روايته .

لم تتركني هواجس النشوة التي أصابت روحي مع الوصول لآخر صفحة في الرواية، احتضنت الرواية العزباء، رقصت معها رقصة الحب الأول، تعلو خفقات قلبي مع دقات المطر خلف نافذتي، أسمع صوت الرياح الخريفية وهي تراقص أوراق الشجر معلنة مولد إحساس جديد حملته طويلا لا أعرف تفاصيله ولكني أحسه، ربما يكون إحساسا كاذبا وحارس البيت نسي شيئا في الحديقة الخلفية راح يبحث عنه فأحدث هذه الجلبة خلف نافذتي .

أحاول أن أتبين مصدر هذا الضجيج من خلف النافذة، لم أر شيئا، تراجعت للوراء عندما أحسست أن الأصوات تقترب، هبت عاصفة شديدة فانفتحت النافذة على مصراعيها، ظهر لي شبح رجل خمسيني وسيم الطلة، يشبه «سليم علوان ».

لم أتمالك نفسي من هول المفاجأة .. كيف جاء إلى هنا؟ هل سمعني وأنا أتحدث عنه؟ هل سمع هواجسي عن الوحدة والخيال؟ كيف عرف مكاني، كيف أتى إلى غرفتي في منتصف الليل؟

أراه يقفز من الشرفة الجانبية لغرفتي، يجلس على المقعد المقابل لسريري، ما زلت متجمدة في مكاني، لايرف لي رمش، كأنني لوحة لصقت على حائط حجرتي. . ساكنة متوجسة ، تملؤني دهشة جرأته في اقتحام خلوتي وأنا بملابس النوم ، لا أدرك حالتي تماما،

هل أنا في حلم منام أم واقع من الخيال.. رأيته ممسكا مصباحا صغيرا كمصباح علاء الدين، قادما فوق بساط السندباد يرتدي بنطالا من الجينز وقميصا في لون السماء بخطوط رفيعة بيضاء ، شعره ممشط للوراء كممثلي السينما في الستينيات، عيناه في زرقة البحر تتفحصان جسدي المرتعش في انتظارلحظة احتضان، عطره ينفذ إلى أنفي مخترقا كل حواسي.. أغفو مترنحة في حالة انتشاء، أسمع صوتي كصدى صوت لامرأة غيري تسأله: هل أنت حقا «سليم علوان » ؟ .

يهز رأسه: نعم أنا «سليم ».

- كيف وصلت إلى غرفتي؟

- تتبعت عطرك منذ لمحتك في حفل توقيع كتابي !

نظرت إليه والدهشة تكاد تقتلني !

- جئت لأخبرك أن العلاقة بين المؤلف والقارئ علاقة مشاركة، وليست علاقة بغض أو تصيد أخطاء أو إلقاء تهم قبل معرفته ، لا تحكمي على أحد لمجرد سماع شائعات أو كتابات مغرضة حوله، ربما هناك من يكيد له. المؤلف يا عزيزتي « مي » يمكن أن يصاب بالاختناق إذا لم يجد القارئ نفسه فيما يكتبه المؤلف .

تزداد رعشة جسدي من مجرد اقتراب أنفاسه من أنفاسي ، أبعده قليلا عني : إنني ياعزيزي قرأت دراسات

كثيرة تقول: إن الرواية ما هي إلا كذبة أو خدعة بقدرما يتقنها المؤلف الكاذب .. ورغم أنها
لا تنقل الواقع بحذافيره، بل تخلق، بوساطة الخيال، واقعا آخر مكافئا، أو موازيا؛ له استقلاليته وخصائصه الفريدة. ولكنها في النهاية كذبة، لم يدعني أكمل كلامي وقاطعني :

الروائي شخص صادق في كذبه وهذا لا يعني أنه كاذب في حقيقته، المؤلف رجل يجيد عمله .

قلت : أعرف ولكنك متهم بالسرقة والكذب والاحتيال على القلوب الطيبة .

- يا عزيزتي « مي » ، الناجحون هم أكثر الناس تعرضا للشائعات و... قاطعته ناسية الموضوع الذي ناقشناه سويا لأسأله بهوس المرأة: كيف عرفت اسمي؟

عرفت اسمك منذ سنوات بعيدة، من أول ما وعيت قيمة ما تقرئين وصارت الروايات عالمك الأثير .

ما زلت أعيش لحظة الدهشة، هل حقا «سليم علوان » في حجرة نومي، يجلس أمامي ويحادثني ، ويعرف عني كل شيء حتى تفاصيل حياتي اليومية ؟ !

حاولت أن أتحسسه، فوجدت المقعد خاليا منه، أخذت أفرك في عيني لأستيقظ من غفوتي، وجدت نفسي حاضنة روايته «سأحبك للأبد » وأنا نصف جالسة على

فراشي نصف واعية ونصف نائمة، قمت بتكاسل وأطفأت ضوء غرفتي وعدت إلى فراشي أحاول أن أستجدي النوم بعد حلم المنام الذي طار من عيني ولم أتمكن منه .

7

البهجة مقسومة على اتنتين .

من الذي يستطيع أن يصنع قوانينه الخاصّة في عالم يضج بالضوضاء؟! خاصة لمن يعشن مثلي وحيدات، في شبه جزيرة معزولة؛ ليشغلني هذا السؤال.. حينما هممت بالخروج من شرنقتي التي عشت فيها حياة هادئة، لم أتجرأ يوما أن أفكر في تغييرها، سنوات طويلة عشتها بين رعايتي لأمي وعشقي للقراءة، وظل الخوف يتملكني من فكرة الخروج إلى عالم آخرغيرعالمي المعتاد، أرى فيه بشرا وناسا آخرين، يتفاعلون بكل ما يمتلكونه من دوافع الخير والشر، لا أستطيع أن أمنع نفسي من استلهام الحكمة من أفواه الروائيين وكتبهم التي صارت دستورا مقدسا في حياتي، «هرمان هسه » في روايته «دميان » رأى «أننا كلّنا داخل يرقات في شرنقة، ولكي نخرج.. ونطير علينا أن نتحوّل، علينا أن نفكّر، علينا أن نتخلّص من الرّواسب المتكوّرة علينا أن نتقبّل بشجاعة ظلمة المحيط داخل الشرنقة في مرحلة التّحوّل، ونحلم بمدى الجمال الذي ينتظرنا في الخارج، علينا أن نصبر على قسوة أفكارنا التي تغطّينا وكم تعذّبنا وندرك مدى جمال التّخلّص والتّحرّر منها، كم جميل أن تصبح فراشة !»

كلام «هسه » يثير بداخلي تساؤلات كثيرة لا يسمعها أحد غيري: الفراشات ياعزيزي «هرمان هسه » جميلة ملونة متحررة، لكنها تلقى حتفها إذا اقتربت من الضوء الشديد، وأنا ليس لديّ مظلات ضوئية، أو حمايات خارج موطني الأصلي سوى بيت جدي، الذي أخشى الخروج منه مع أنني في قرارة نفسي أتمنى لوأحطم شرنقتي وأتحرر وأرى العالم بعيون مفتوحة دون حواجزأو ستائر الخوف، لكني لا أمتلك الشجاعة لمواجهة هذا العالم الخارجي فأستسلم لعالمي راضية قانعة بما أعيش فيه تحت مظلة أمي .

- يقطع رنين هاتف «عم محمد متولي » هواجسي مع «هرمان هسه » مؤكدا على موعده، وأخبره بأنني سأكون هناك في الموعد .

تتلبسني أحيانا روح اللامبالاة، وعدم الاكتراث بما يحدث من حولي، أرى نفسي أشبه بالدمية التي تحركها خيوط الأحداث من حولها، أنظر في المرآة فأرى وجه فتاة ذات ملامح عادية، لا تلفت نظر أحد، تشبه ملايين الفتيات، لا تهتم بمظهرها أو اختيارملابسها؛ لا تسعى لوضع لمسات طفيفة من المكياج لتحديد ملامحها . تترك نفسها هكذا كابنة للطبيعة .

وإذا سألتها مرآتها: لماذا لا تتجملين؟ ترد بجفاء: لمن أتجمل؟ لنفسي أم لأمي التي لا تستطيع أن ترى وجهي ولا تعرف كيف يبدو شكلي .

يقترب موعدي مع «عم محمد متولي » ، وهلاوسي عن الجمال تزداد وتكبرفي رأسي. ارتديت بنطال جينز وبلوزة رمادية مزركشة بحبات زهرة الخوخ الوردية، وضعت حول عنقي شالا يتناسب مع لون هذه الزهرة المحببة ، رفعت شعري في ذيل حصان ليتناسب مع يوم عادي. ألقيت صباحا سريعا على أمي، ولم أنتظر ردها أردت أن ألحق موعدي قبل اختناق المرور، كانت هي منشغلة كعادتها الصباحية في ترتيب حجرتها.. ووضع أشيائها الصغيرة في أماكنها، فهي لا تتقبل أن يرتب لها أحد ملابسها أو أكسسواراتها، تفعل ذلك بحاستها المتفاعلة مع تفاصيل الحياة اليومية.وحينما أحست بحركتي على عتبة البيت سألتني: هل تناولت إفطارك؟

قلت: أخذت كوبا من الشاي وبسكويت ، وحين أعود يمكننا تناول الغداء معا . خرجت مسرعة، للحاق بموعدي، وحين اقتربت من المكتبة لمحته واقفا يتحدث مع أحد المارة يرشده إلى مكان يبدو أن صاحبه ضل طريقه، فهمت من إشارات يديه أنه يصف له الطريق. ولما رآني أشرت له بيدي لأخبره بقدومي .

وحينما اقتربت، دلفنا معا في اتجاه مكتبه، ثم توقفنا برهة أمام «البوفيه » ليسألني : ماذا تفضلين، شاي أم نسكافيه؟ .

قلت مبتسمة: أريد شايا بدون سكر؛ فالتفت نحو عامل البوفيه : شاي بدون سكر وقهوة زيادة، بعد السؤال عن أمي وأحوالنا قال بلا مقدمات :

وجدت لك وظيفة أعتقد أنها تلائمك !.

قلت بدهشة: وظيفة.. لماذا؟.. واتسعت ابتسامتي: هل طلبت منك أن تجد لي وظيفة؟!، تصورت أن لديك أمرا عاجلا تريد أن تطلعني عليه، لم أتخيل أنك أردت مقابلتي العاجلة من أجل وظيفة لي! وزادت دهشتي : يمكن أكون طلبت منك ذلك ونسيت !

صمت برهة وهو يدقق في ملامحي: كنت أظن أنه خبر سار، ستسعدين به !

لم أجب عليه ولكني لمحت في نبرة صوته بعضا من الإحباط التفتّ نحوه محدقة في عينيه الضيقتين: ما هي الوظيفة؟

- «قارئة روايات »

- قلت بتعجب: ماذا؟ كرر كلامه : « قارئة روايات »

- قارئة روايات، هذا عنوان رواية أم وظيفة؟؟

- لا تسخري من كلامي: هي وظيفة بالفعل؛ مكتبة المعادي أعلنت عنها من أيام قليلة، وطلبوا مني أن أشغل هذه الوظيفة، لكني اعتذرت. فالمكتبة بعيدة عن

سكني كما تعلمين،.. وأول شخص خطر على بالي هو أنت .

- شكرا، لكن دعني أفكر .

- الحكاية لا تحتاج تفكيرا، الوظيفة مناسبة وقريبة من بيتك؛ وأنت تمتلكين ملكة الحكي يمكنك أن تختاري أعمالا روائية، لمراحل عمرية مختلفة، تقرئين لهم كل ما ترغبين في جلسات للأطفال والناشئة والناضجين.. أتصور أنه عالمك الذي تحبين، ثم إنها جلسات أسبوعية.. وقد تكون هناك جلسات أكثر إذا تطلب الأمر .أرى أنها وظيفة ممتعة للغاية، وتأتي على هواكِ، بماذا تفكرين؟

سرحت لبرهة بخيالي ناسية عالمي بكل مافيه، وكأنه سمع حواري مع أمي من فترة وجيزة عن رغبتي في العمل كقارئة روايات، ليس غريبا على عم محمد الذي يسعى دوما للاهتمام بأمري .

قلت لنفسي: ولم لا، الوظيفة تعجبني وهي تلائمني بالفعل «قارئة للروايات » ليه لأ !

أقرأ بصوت عال، أعلن عن حبي لكل الناس، كنت فيما مضي أتحدث مع نفسي وتجيب عليّ جدران غرفتي ولوكنت محظوظة أناقش أمي وأوافق رأيها حبا ..

هللت بصوت لم يسمعه عم محمد :

هذا يجعلني أخرج بأبطال الروايات إلى العالم الواقعي، بعد أن كانوا يسكنون داخل رأسي لوحدي ...

قاطعني عم محمد: وصلت إلى أين..؟

- لم أذهب بعيدا عنك. أنا موافقة على الوظيفة .

- توقعت ذلك... ألف مبروك .

كعادتنا نتناقش ونختلف ثم نتفق، علاقة قديمة ومتينة رغم أننا في الفترة الأخيرة لم نكن نلتقي كثيرا إلا أني اعتبره طول الوقت من أقرب الأصدقاء إلى نفسي وهو يعتبرني كذلك.عشقه للكتب يقربني منه دون أن أدري، فالعشق والهواية في العمل يصنعان عالما من الدهشة وحبًا حقيقيًا للحياة والقدرة على تحملها، فكرة إحالته على المعاش ليست صائبة في كل الأحوال .

- سرحت تاني؟! سأبلغ إدارة المكتبة بموافقتك .

قلت بلا تردد: في هذه المرة سرحت فيك .

ابتسم بارتياح: سرحت فيّ أنا !.. قلت: نعم، لم لا، وأنت تحمل همي، وتشعرني بأنني مسئولة منك طول الوقت .

رد بخجل: ربنا يعلم ما في القلوب .

اتفقنا على أن يخبرني بموعد مقابلة مديرالمكتبة العامة، وإذا كان لديهم طلبات معينة للوظيفة لابد أن

يخبرني بها قبل المقابلة .

هممت بالانصراف بعد أن كررت شكري وامتناني لعم محمد متولي. ودعني وعلى وجهه علامات الارتياح، والدعوة الصافية من قلبه بأن يوفقني الله في وظيفتي الجديدة .

مشاعره نحوي تحيرني أحيانا، أشعر أنه قريب جدا من روحي، وبأنني أمثل له وجودا مهما في حياته، وفي أحيان أخرى أرى فيه الرجل الطيب صانع الخير لكل المحيطين به بطبيعته الأبوية.. هذا النوع من البشر تضاءل وجوده بيننا تماما مثل نموذج أمي التي ترى في كل الناس الطيبة وحسن النية إلى أن يثبتوا لها عكس اعتقادها الثابت..وتكون الصدمة التي لا تتعلم منها وتعاود من جديد التعامل مع كل الناس بنفس الطيبة والعفوية .

تركته على أن يتصل بي حينما يحدد مدير المكتبة موعدا لمقابلتي ..

في طريق عودتي، ذهبت لشراء بعض احتياجاتنا التي طلبتها أمي، ونسيتها في لهفة خروجي مسرعة للحاق بموعد عم محمد، كل شيء من حولي يشعرني بالارتياح، مقابلتي مع أمين المكتبة أضفت على نفسي حالة من السعادة الخفية والشغف باقتحام عالم جديد كنت أتمناه وأخشاه ، لم يكن لدي الجرأة والشجاعة

لاقتحامه، رغم إلحاح أمي الدائم بالخروج والبحث عن عمل، اعتقادا منها أنها السبب في عزلتي وبقائي بلا زواج حتى بلغت هذه السن التي تضعني على شفرة العنوسة، بكل أريحية، وفي الحقيقة كنت مشغولة بنفس إحساس أمي ولكني لم أتوقف عنده طويلا، كانت رغبتي في إسعادها والإبقاء على راحتها أهم من الوظيفة والزواج وأدرت مذياع سيارتي، ربما أجد أغنية أو لحنا يخفف عني هذه السخافات التي لا تكف نفسي عن مناوشتها معي كلما طرأ في حياتي شيء جديد، توقف مؤشر المذياع عند محطة «البرنامج الثقافي » تصادف إذاعة برنامج «سهرة مع فلان » ، المفاجأة الغريبة أن فلان هذا، اتضح بعد ثوان من البرنامج أنه الروائي «سليم علوان » ، صرخت على مقعد القيادة : معقول الحلم تحقق !

«سليم علوان » في الإذاعة، وحوار معه!! ما هذه الصدف الغريبة التي تحدث معي اليوم ، وظيفة «قارئة روايات » وبرنامج عن الرجل الذي شغل تفكيري طول الليل؟

بدأت المذيعة بمقدمة طويلة تتحدث فيها عن أعماله وتاريخه ومؤلفاته، ومعاركه الفكرية، وعرفت أنه درس الفلسفة الإسلامية وحصل على دكتوراه في أدب الصوفية، وله مؤلفات غير المكتوبة على غلاف روايته «سأحبك للأبد ».

توقفت عند السؤال الذي طرحته المذيعة عليه حول روايته الأخيرة الرومانسية بعد رواياته التاريخية إذا كانت عن تجربة شخصية؟ فأجاب عليها مثلما يجيب الكثيرون بالرد الشائع أن لكل روائي في أعماله الروائية جزءا منه شخصيا، لكنه ليس البطل الحقيقي في الرواية، يعني كتاباتي التاريخية استلهمت الأبطال من أبطال حقيقيين والأماكن والزمن في الرواية لكن هناك تفاصيل كثيرة هي من صنع الخيال لم تحدث في الحقيقة رغم أن العمل يدور حول أحداث تاريخية وقعت بالفعل، الفن الروائي لو نقل من حياتنا مباشرة إلى القاريء سيكون أشبه بالصور الفوتوغرافية الخالية من الخيال والفن والصنعة في الكتابة، الرواية هي الحكاية الكاذبة باستخدام كل وسائل وطرق الصدق المتاحة والممكنة بحيث يشعر القارئ أن هذه القصة حقيقية ووقعت أحداثها بالفعل مع أبطالها.. الرواية التاريخية ينبغي أن
لا تكون تزييفا للتاريخ الحقيقي.. بل عليها أن تحفظ مصداقيته، تماما مثلما قال جورج لوكاتش: أن تكون الرواية أمينة للتاريخ، بالرغم من بطلها المبتدع وحبكتها المتخيلة .

وحينما سألته المذيعة عن الحب في روايته الأخيرة، أجاب بدبلوماسية معهودة : "الحب الكبير، تقتله الأسئلة الكثيرة ".

أعجبتني إجابته، ولكنه هرب من الإجابة حول بطل «سأحبك للأبد » ، الحوار لم يكف لمعرفة إن كان متزوجا أو مطلقا، لديه أبناء أو لم يتزوج من الأصل؟

لماذا أفكر فيه من هذه الجوانب؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، حينما عدت للبيت وأمي قد أعدت الغداء بمفردها وهذا الأمر يزعجني جدا، كونها تبذل جهدا مضاعفا في إعداد الطعام الذي تفضل أن تقدمه بنفسها منذ أمد طويل لتشعرني بأنها أم طبيعية، وهي لا تعلم أنها بذلك تزيد قلقي عليها، وتجعلني أتردد كثيرا في تركها في البيت لوحدها. بالرغم من معرفتي بحنكتها وتجاربها السابقة الناجحة .

احتضنتها فور عودتي وقلت لها وأنا مازلت في حضنها: افرحي ياست الكل، وجدت وظيفة، وسوف أحقق لك أمنيتك و ..

قاطعتني أمي بخوف: وظيفة؟! أي وظيفة؟

قلت مشاكسة: يا أمي يبدو أن عم محمد سمع حواري معك عن رغبتي في أن أشغل وظيفة «قارئة روايات » ، فأخبرني اليوم بأنه وجدها لي.. وغرقت في الضحك وأمي ساكنة لم تنفعل لانفعالي، غير أنها قالت لي: أين وجدها يا «مي » ؟

حكيت لأمي كل ما دار بيني وبينه، لمحت علامات الارتياح على وجهها هي أيضا.. عندما علمت بتفاصيل العمل وأنه في مجال طالما أحببته كثيرا وهي تحبه مثلي.. القراءة والكتب هي حياتنا نحن الاثنتين، وأن مكان العمل لا يبعد كثيرا عن بيتنا .

أرادت أمي في هذه الليلة أن تحتفي ببشائر حصولي على وظيفة تخرجني من عزلتي التي ترى أنها سبب بعدي عن الناس ولا أراها أنا كذلك، جلست بجوارها وهي تداعب خصلات شعري بأصابعها تحاول أن تصنع لي ضفائري مثلما كانت تفعل وأنا صغيرة، حدثتني عن يوم مولدي، وفرحة أبي بميلادي رغم حلمه بالولد، لمست فرحتها وهي تربت على كتفي، دندنت بأغاني أحببتها وأنا طفلة، كانت سعيدة من أجلي أكثر من سعادتي، لم أرد أن أبدد فرحتها وأحكي لها عما سمعته في الإذاعة عن «سليم علوان » ، صوتها الحنون أخذني إلى بلاد السحر والجمال في أساطير «أليس » وقصص الخيال، مداعبتها لضفائري التي صنعتها لي بيديها أعادتني إلى أيام الطفولة والجري للالتحاق بأتوبيس المدرسة، مستسلمة تماما لحالة الاسترخاء الجسدي التي لفتني بها، كل هذا بعث في روحي الطمأنينة والأمان .

إن الإنسان لا يشعر بالبهجة إلا لو تقاسمها مع من يحبه، وأنا أحتفي مع القلب الوحيد الذي أحبني في هذا

الكون، لولا خوفها عليّ الذي يحولني إلى دميتها المحببة في بعض حالاتها لكانت حياتنا أكثر صراحة ووضوحا، نفصح لبعضنا عما يجول بخواطرنا لا نخفي شيئا ولا نوارب حقيقة، لكن مخاوفنا على بعضنا تمنعنا من فعل ذلك أحيانا، هي لا تريد أن تخبرني بكل أسرارها وأنا كذلك لا أريد أن أحكي لها عما يمكن أن يفسد فرحتها الليلة .

ما لا تعرفه هي عني أن الوحدة والعزلة لا تؤرقني، فقد اعتدت عليهما، وأحببتها ولا أطيق الابتعاد عنها، على قدر فرحتي بالوظيفة التي وجدها لي حارسي الأمين عم محمد «أمين المكتبة » إلا أن هناك مخاوف صغيرة سوف تأخذني بعيدا عن هذا العالم الذي أحببته ولا أريد أن يشاركني فيه أحد غير أبطال القصص والحكايات و أصحاب الروايات ووجودي بجوارها حينما ألحظ أنها عاجزة عن فعل شيء ولا تستطيع .

هذا أمر يمزقني ولا يجعلني أفكر لحظة في مفارقتها .

8

كنت أود النوم بجوارها ولكني تراجعت .

بدأت حجرتي تتلون بألوان البهجة والحلم بالتحرر، لم أعد أرى الحوائط صماء ولا الصور المعلقة على الجدران صامتة، الكتب تمايلت ورقصت على الأرفف تنتظر يدا تمتد نحوها، بدأت أسمع أصوات التصفيق والتهليل من كتبي المرصوصة في طابورالانتظار لقرارالإفراج والعفو عنها، والخروج من سجن الغرفة إلى نور المكتبة العامة، كل ركن في حجرتي يتوق للحرية خارج أسوارالغرفة المغلقة، أسمع همس «فوكنر ومارك توين » وهما يتحاوران عن أيهما سيبدأ معي في أول جلسة قراءة، صوت «طه حسين » وهو يشاكس «توفيق الحكيم » ويخبره أن الحب الضائع لن يضيع طالما سيجد من يحكي عنه، ويرد عليه «توفيق الحكيم »: سيخرج أهل الكهف من كهفهم ويروون حكاياتهم بأنفسهم على صوت فتاة جميلة عشقت كل سطور كلماتي، وأسمع ضوضاء وجلبة من «جورج أورويل » الذي يراهن على روايته « 1984» وبأنه سيكون له الأولوية في رواياته التي أحببتها كثيرا، ويحسم الموقف «همنجواي » بأن «العجوز والبحر » هما من سأبدأ بهما أولى جلساتي القرائية، وتدور رأسي من أين أبدأ جلستي الأولى؟ !

تذكرت صورة «سليم علوان » جالسا في حفل توقيع «سأحبك للأبد » وسط زحام الشباب والشابات اللاتي يتهافتن عليه ويتخبطن بأجسادهن لنيل شرف توقيعه على نسخ روايته، ماذا لو استضفته في أول جلسة للقراءة وحضر معه كل هؤلاء الشباب.. أكيد ستكون جلسة ناجحة، لمعت الخاطرة في رأسي.. وحدثتني نفسي : لماذا لا أعرض على مدير المكتبة هذه الفكرة؟ هذا في حالة موافقته على توظيفي كقارئة روايات؟، إنها بداية صائبة لروائي في مكانة «سليم علوان »...

عم محمد متولي لم يتصل.. ولم يخبرني شيئا، منذ التقيته ووعدني بالاتصال، ولم يفعل، هل رفضوا ترشيحه لي؟ أم أنه فشل في إقناعهم بأداء هذه المهمة؟، ربما استعانوا بغيري، وربما تراجعواعن الفكرة ...

بدأ القلق يساورني لأنني في الواقع اسم غير معروف في الساحة الأدبية.. وبديهي أنهم يفضلون أن تكون قارئة الروايات شخصية معروفة، وربما تقدم لهم أخريات يصلحن للوظيفة أكثر مني، أو ربما يفضلون قارئا للروايات وليست قارئة !

مالي قلقة هكذا؟!.. لن أتعجل الأمر..سأنتظر .

طال الانتظار حتى أنني فقدت الأمل في اتصال «عم محمد » الذي جاءني بعد ثلاثة أيام حاملا

خبرموافقتهم على توظيفي قارئة روايات!!.. صوت «عم محمد » يضج بالفرحة وهو يؤكد على موعد مقابلة «د. علي بسيوني » مدير المكتبة .

تنفست الصعداء.. جريت على أمي لأسمعها أسعد خبر في حياتي .

ياه ... لا أصدق نفسي.. أخيرا سألتحق بالوظيفة التي حلمت بها .

لم أنم في تلك الليلة أخذت أحصي الكتب وأعدد الأفكار، وأناقش أمي في نوعية الروايات التي تحملها مكتبتي الضخمة وبأي منها أبدأ؟ وهل أتناول كتبا ثقافية فكرية أم روايات تاريخية أو قصصا عاطفية..لم تقف أمي صامتة أمام حيرتي بل اقترحت عليّ أن آخذ في اعتباري قيمة العمل الذي يتم قراءته والحرص على التنوع في اختياراتي ولا أتوقف عند كتاب سياسي أو رواية عاطفية أو كتاب مثير للجدل.. وإنما أقدم كتبا متنوعة في الفكروالسياسة والأدب والفنون.. أمي دوما محفزة لي.. لها نظرة ثاقبة في القراءة تستطيع أن ترى ما لا أراه وتعرف ما لا أعرفه، ولم لا؟! وهي التي أدخلتني عالم القراءة، منذ صغرى مثلما علمتني حروف الهجاء، والسير خطوة خطوة حتى اشتد عودي .

سألتني: بأي كتاب سوف تبدئين .

قلت بلا تردد: أفكر في رواية «سأحبك للأبد ».

تغيرت ملامح وجهها، وانقلبت الابتسامة والتهليل إلى صمت وقلق من مجرد ذكر اسم «سليم علوان » من جديد، رغم كل تحذيراتها منه، اكتشفت بفراستها التي أعرفها أنه لا فائدة مني وبأنني أريد أن أخوض تجربة المعرفة بنفسي .

نهضت من مقعدها بعصبية واتجهت نحو غرفتها مستندة إلى عصاها البيضاء حينما تريد أن تتحرك بسرعة دون مساعدتي، ودون أن تلقي تحية المساء ودون أن تقبلني فوق جبهتي كعادتها، ذهبت لغرفتها في زحف حثيث.. تاركة خلفها سؤالا غير مفهوم؟ !

أدركت حزنها ولحقت بها على باب غرفتها، وأخذتها في حضني وقلت: أنا كبرت، ولا داعي للقلق والخوف، أنا ابنتك التي تربت على العناد والقوة والمعرفة من أصولها.. أرجوك اطمئني .

ربتت على كتفي: أعرف.. ربنا يكفيك شر ما لا تستطيعين مواجهته .

قبلت أمي في جبهتها واطمأننت على أنها استلقت على سريرها وأحكمت عليها الغطاء كأم تخشى على ابنتها الإصابة بنزلة برد، ثم أطبقت يديها بين كفي هامسة: يا حبيبتي، تصبحين على الخير كله .

ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة تحمل قلقا شديدا عليّ، قبلتها على جبينها وتمنيت لها نوما هادئا .

تركتها وقلبي متوجع عليها، كنت أود النوم بجوارها.. ولكني تراجعت، خشيت أن أنقل لها عدوى القلق، دخلت أنا الأخرى غرفتي وأغلقت بابها بإحكام كمن لا تريد أن تعرف ما يغير رأيها ويثنيها عن اختيار روايته لجلسة القراءة الأولى، استلقيت على سريري وأغمضت عيني على صوت موسيقي شهرزاد المستوحاة من «ألف ليلة وليلة » لـ «ريمسكي كورساكوف ». التي كثيرا ما تصاحبني في ليالي السهد والأرق، إنها قادرة على تغيير مزاجي وتخفيف حدة القلق الذي صار ملازما لي في الفترة الأخيرة.. مع انسياب نغمات اللحن الهادئ كنهر عذب يتغلغل بين شراييني، أخذتني الموسيقى إلى هناك.. رحت بعيدا، أرخيت رأسي على وسادتي، تركت لحبل أفكاري أن يرتخي ويسبح في فضائه الرحب، لا تمنعه جدران حجرتي المغلقة.. ولا مخاوف أمي.. شعرت أنني أحلق في الأفق كطائر خارج السرب .

مخاوف وظنون وأحلام وآمال بعيدة، تمنيت لو تحدث دون إيذاء لمشاعر أمي، فلا أحد يعرف ما الذي تخبِّئه الأيام .

لم أع تماما ماذا حدث؟ هل نمت أم كان حلما من أحلامي ...

رأيت «سليما » جالسا أمامي على مقعدي الأثير خلف شرفة حجرتي.. بكامل هيئته يرتدي زيًا أنيقا، ممشطا شعره للخلف، لم تخف نظارته الطبية لمعة عينيه، يبدو شابًا في مثل عمري..لم يكن لقاؤنا حارًا، كان لقاءً هادئا، خاليا من اللهفة، حاملا اشتياقا عاقلا نابضا بالحذر والترقب، مخفيا وراءه سؤالا مرعبا ماذا بعد؟ لماذا انتابني شعور بالخيبة والفشل في آن واحد؟ لماذا تتضارب مشاعري نحوه، لماذا تصورت أنه سوف يلقي بجسده على فراشي ويحتضنني بذراعيه ويضمني إلى صدره ويغرقني بقبلاته في لحظة جنون..لماذا لم يقترب مني وظل باقيا في مكانه..يتحدث ولا أسمعه من شدة انفعالي لوجوده معي .

أردت أن أقول له من أول لحظة كل شيء حفظته من سنوات بعيدة ولم يعرفه عني، هذه إحدى حماقاتي، عندما أفرح أتحول لطفلة تبوح بكل أسرارها لبائع الحلوى، لم أكن أدري أنني أطفئ سحر لهفته، كنا كضيفين ضاق بهما المكان، كل منهما يريد أن يخبر الآخر بكل ما لديه،فتبعثرت الحكايات، وتشابكت المواضيع، ولم نكمل حوارا واحدا لنهايته، من كثرة ما حكينا تبعثر ما كنا نريد أن نقوله، كانت حكاياتي أكثر حمقا، وكانت حكاياته أكثر عمقا، التقت حماقاتي بأعماقه فكان الشعور بالافتقاد والاحتواء، الذي أكننته ولم يحسه، لأن حماقاتي كانت أكثر، هل لهفتي عليه قتلت اللقاء .

كم أحزنني لقائي العاثر معه مرتين ..

مرة لأني اكتشفت بعد اختفائه من حجرتي، أنني نسيت أن أروي له مزيدا من قصصي الساذجة، ومرة ثانية لأن قلبي كان أكثر حمقا مني فلم أحسن الإنصات إليه! تركته يذهب قبل أن نتفق على موعد جديد !

استيقظت مغمضة العينين، أعيد شرائط حوارنا المتقطع في موضوعات شتى لا أتذكرها، إلا موضوعا واحدا لم أجرؤ على التحدث فيه «علاقته بأمي » ، هالني حضوره البهي، ووسامة روحه التي غطت على وسامة ملامحه، لم أتحقق من لون عينيه، رحابة فكره احتلت كل مساحات الحلم مثلما احتلت كل مساحات الحرية التي كان يتحرك فيها بداخلي بلا أدنى مقاومة وهو قابع أمامي دون أن يتحرك من مكانه، لا أعرف لماذا تمنيت في تلك اللحظة أن أكون مثله وأن تكون حياتي مثل حياته. هو يمتلك جاذبية لافتة في الكتابة. كيف استطاع في لقاء خاطف أن يحولني من كائن هادئ إلى متمرد، لم يكن ساحرا، ولا نبيا، كان رجلا يبدو للوهلة الأولى عاديّا. لكنه ليس كذلك !

.....

فتحت عينيّ قليلا كي أتحقق من أنه كان حلما ..

عدت مرة ثانية للغفوة، أو هكذا خيل لي ..

أستدعيه ثانية ..

يأتي ملهوفا كمن نسي شيئا ..

عاد يبحث عني، كان ظهوره واختفاؤه في هذه الظلمة كومضات البرق في ليلة ممطرة، أحصي الساعات والدقائق التي مرت على لقائنا، وجدتها بحساب الزمن ثواني معدودة، وفي حساباتي عمرا من السعادة غير محسوب، تعلمت من المرة الأولى فتركت له دفة الحوار والكلام، أبحر في الحوار كقبطان يرفع شراعه تجاهي فلم يحدث أي تقلبات طقسية بيني وبينه طوال جلستنا .

ما زالت شهر زاد تحكي على موسيقى ألف ليلة وليلة.. أسطوانتها المشروخة .

أصحو وأغفو على نغماتها فلا أعرف إن كنت في صحوي أو منامي؟ !

كانت الليلة ليست ليلة من ليالي شهرزاد، ولكنها كانت ليلة اتفقنا أنا وطيفه على أشياء كثيرة لا أذكرها، إننا لم نختلف على شيء، كنا متفقين في كل آرائنا، هو بحكمته وأنا بتلقائيتي..كنا كمن دخلا حديقة مزهرة، لم نجرؤ على قطف الثمار، ولا أدري إذا كنا خشينا الهبوط على أرض الواقع أم أننا كنا مدركين الثمرة المحرمة، ولم نأكلها حتى نبقى في جنة البدايات .

حكاياته تشبه عذوبته، ما يزيد حيرتي أنني أرتبك لمجرد رؤيته، فلا أدرك إذا كنت نائمة أم في يقظة، يبدو أنه حمل اللقاء المنتظر .

لا شيء يخيفني من لقائه غير أنني لا أستطيع ضبط رد أفعالي نحوه، أكثر من الزمن الذي أوقفني وأعجزني عن قدرة البحث عن الأحلام لسنوات طويلة.. وهذا أمر لم أكنه يوما ..

تعمدت أن أحدد المسافة بيني وبينه إيمانا بأن الاقتراب يقتل الاشتياق، كرهت الحرائق التي أصابتني بعقدة التأني الذي يفقدني الحلم، قررت أن يبقى حلما بلا تفسير، أحببت غموضه على أرض الواقع، أما مساحات الخيال فقد أفسحت لها الطريق، اخترت أن تكون كتاباته مسرحا للحياة التي أعيشها معه من خلال خياله أيضا، وهكذا تكون العلاقة عادلة، خيالا يعشق خيال في وقت لم يعد مناسبا للحب .

فرضت كلمة الحب وجودها في حياتي، فهي بالتأكيد جاءت عفوا وليس قصدا، فالحب قصة أخرى لا أقوى عليه في مثل ظروف شديدة التعقيد، لكني أعني ما هو أقوى وأعلى من الحب، إذا جاز القول «ميتافيزيقا الحب » ، أو ما وراء الحب، شيء غريب لا نلمسه بحواسنا ونحسه بأرواحنا، ليس أفلاطونية الحب، لكنه شيء غامض يفيض راحة وطمأنينة لوجود شخص آخر يشبهك ولكنه ليس أنت .

يكفيني أن أحبه للأبد، وهذا لا يعني قصته التي كتبها ببراعة، إنني أعنى الوجود بمعنى الطمأنينة بأن يكون في هذا العالم المتسع شخص يفهم ويترجم ما تريد قوله، هذه العوالم التي عشتها مع بعض كتاباته أعادت لي أشياء كثيرة نسيتها في دوامات
الاعتيادية،والتشابهات، والتعالي، لا أقول هذا حبا بقدر ما أعنيه فعليا، أدَّعي أني قارئة نهمة وأمتلك بعضا من الوعي في التفرقة بين الرديء والجيد، فما بالك بالمبهر، الذي لا أحد يستطيع إخفاءه كشمس صيفية .

قل لي: من أنت بحق هذا النهار الذي أخذت الشمس تعتدل فيه في جلستها وسط السماء؟

قل لي حتى يرتاح عقلي الشارد ليلا، العاقد العزم نهارا على تحديد موعد اللقاء: من تكون؟

هل أنت الحلم الناقص، أم أنت خيال صنعته مثلما فعل توفيق الحكيم مع «بجماليون » ذلك الحلم بالكمال ونسي حقيقة هامة وهي أنه «لكل شيء إذا ما تم نقصان ».

هل أنت حلمي الدائم أم يقظتي الحائرة؟

هل نحن في صراع دائم بين ما نريده و ما تعطيه لنا الحياة .

وهل يجب علينا أن نقنع بما نمتلكه أم أننا حين نرضى فإننا وباسم القناعة نضع حدودا لأحلامنا؟

أسئلة كثيرة أثارها وجود «سليم علوان » في حياتنا الهادئة أنا وأمي بعد ما كانت تسير على وتيرة واحدة دون قلق أو ارتباك، انقلبت حياتي إلى حيرة وغموض ومحاولة فك سِرٌّ يبدو لي أن له علاقة من قريب أو من بعيد بأمي نفسها ولا تريد أن تبوح به، إن أحلامنا هي ما نوجد عليه في يقظتنا، وما أعيشه يضعني في حيرة من نفسي التي تتوق إلى الانجذاب نحوه، ورغبتي في معرفة حقيقة هذا الكاتب الذي بات يقلقني في صحوي ومنامي منذ أن لمحته دون أن أتحدث إليه! وغمرني حضوره الطاغي على كل الموجودين من حوله، إن العلاقة بيني وبين المؤلفين لا تنتهي بنهاية قراءتي للنص، إنني أرى في علاقتي بالمؤلف علاقة تلاقٍ بين عقلين و روحَين بمشاعر ورُؤى وأفكار وليست مادة جامدة كالطعام تنتهي بانتهاء عملية الأكل. النَّص يحمل روح الكاتب، إحساسه، أفكاره، وأسلوبه، وهذا ما يرسم شخصيته في ذِهني ومُخيّلتي فأشعر بعد فترة من القراءة أنني بِتُّ أعرف الكاتب معرفة شخصية وهذا ما حدث لي بعد ما قرأت رواية «سأحبك للأبد ».وكسائر مبدعي الروايات التي قرأتها، لكن الاختلاف هنا أن مبدعي كل الروايات التي قرأتها عرفتهم ولم أرهم و «سليم » عرفته ورأيته وهذا حدث عظيم .

أرتشف كوبا من الشاي الأخضر الممزوج بقطع من الليمون الطازج الذي قطفته بنفسي من شجرة بيت اليقظة، لعل اليقظة تأخذني مثلما أخذت الحياة الشمس إلى مكانها الطبيعي في بداية النهار .

9

بعكس ما قال لي أبي، القراءة ليست سببا للعنوسة .

سار الحوار بيننا في اتساق وتناغم مدهشين، رجل مثقف متواضع، له الكثير من الآراء المتحضرة يؤمن بقيمة القراءة والمعرفة في حياة الناس، قابل أفكاري بالترحيب وخاصة فكرة إقامة ندوة أدبية عن «سليم علوان » وروايته «سأحبك للأبد ».. على أن يسبقها قراءات حرة قبل بداية جلسة قراءة لروائي شهير في مكانة «سليم علوان ».

ما أعجبني في د. على بسيوني مديرالمكتبة، أنه قارئ شره مثلي، وأكثر ما أدهشني قراءاته التي فاقت خيالي، وأنا التي كنت أظن نفسي فأرة كتب قابلت من هو أكثر مني عشقا للقراءة .

عدت إلى بيتي وأنا أكاد أطير من الفرح، ليس لأنني التقيت شخصا مثقفا ومطلعا، ولكن لأني التقيت رجلا يقدر قيمة القراءة وأهميتها كأسلوب تغيير في الحياة، في الوقت الذي كان يراها أبي -رحمة الله عليه-أنها ضياع للعمر.. وأنها سبب كاف للعنوسة !

لو كان أبي حيا لأخبرته:إن لحظة تحقيق الأحلام هي لحظة الإحساس الحقيقي بالحياة لمن عاش مثلي حلما تصور استحالة تحقيقه. وأن السعادة الكبري هي في العمل الذي نحبه ونصبو إليه، ويجعلنا على يقين من أننا قادرين على إنجاز ما يتصور الآخرون أنه لا يمكن إنجازه.. وأن هذه المشاعر ليس لها علاقة بأن يكون في حياتي رجل تزوجته أو لا يوجد في حياتي أحد .

بدأت جلسات القراءة، باستضافة مجموعة من الكتاب الشباب ومناقشة أعمالهم في حضورهم لتحفيزهم على مواصلة إبداعاتهم، كشفت لي عن وجود جيل متعطش للمعرفة ولا يجد منفذا للتعبير عن نفسه.. يكتب بلغته ويعبرعن فكره ويعلن عن نفسه بأنه موجود ولا أحد يهتم، ولكني أهتم .

اعتدت أن أحكي لأمي كل ما يدور في جلسات القراءة من حوارات ومناقشات، وكانت تشير علىّ ببعض الملاحظات المحببة التي تعطي طعما مختلفا لطبيعة الجلسات القادمة.. بما تبثه من روحها وإحساسها النابض الذي يثير إعجابي وإعجاب الحاضرين كأنها موجودة معي تشاركني في كل جلسة. وحينما تحدد موعد جلسة رواية «سأحبك للأبد » ترددت في إخبارها، هل أحكي لها عنها مثلما أفعل في كل جلسة؟ أم أخفي عنها سر إعجابي بهذا الرجل اللغز؟، الذي أربكني من أول يوم رأيته فيه .

ينتابني شعورغريب بالفرح حينما أتذكرجلسته الموعودة، لا أستطيع أن أخبر أحدا بأحاسيسي نحوه، حينما يمر اسمه في خيالي أبتسم ولا أخبر أحدا، ليس لدي صديقة أحكي لها عن مشاعري الغامضة نحوه، ولا أستطيع أن أبوح لأمي بذلك .

بعد سبعة أيام سأجلس بجواره على منصة القراءة، أناقشه وجها لوجه، لن أستدعيه لغرفتي المغلقة مثلما أفعل، سيكون بيننا موعد حقيقي دون استدعاء، هذا يحتاج مني أن أعيد قراءة كل ما كُتب عنه، ليكون حاضرا في ذهني وخاصة روايته الأخيرة، أريده لقاء نابضا مثمرا كما حلمت، أريد أن أبهره من الطلة الأولى مثلما فعل معي .

ما يشغلني هو أنني لم أتعود أن أخفي عن أمي شيئا، وحينما أخبرتها حدث ما توقعته .

صمتت أمي طويلا ثم قالت: طالما أنت مصممة على «سليم » هذا، سأروي لك بعضا من صفحات حياته، لعلها تفيدك في حوارك معه !

هللت من الفرحة: ياريت.. أريد أن أبهره .

كتمت أمي غضبها كما عكسته ملامح وجهها من عقدة الحاجبين، وضم الشفتين في محاولة لكبح زمام الحديث عنه لكنها تخلت في ثانية عن صمتها من أجلي،

خرجت تنهيدة عميقة من بين أضلعها: أصغي لي جيدا: سليم هذا الذي حدثتك عنه بأنه كان يحب إحدى صديقاتي، وأنه خدعها وخَلِي بها بعد ما كانا قد اتفقا على الزواج. لم تكن صديقتي هي التي خدعها، وإنما كنت أنا التي أحببته وخدعني .

لم تصدمني كلمات أمي.. ولم يفزعني اعترافها! وما حجبته عني منذ اللحظة التي أخبرتها فيها عنه، ساورني الشك أنها هي الحبيبة المجروحة وليست صديقتها كما زعمت، من أول لحظة لمست فيها تغيرلون وجهها وملامحها كلما جاءت سيرته، لكني كنت أكذب حدسي ولم أتفوه بكلمة. واصلت أمي حديثها: كنت في السنة الأولي بالجامعة حينما لفت انتباهي، كان يكبرني بعام ونصف، تخصصت أنا في علم نفس الاجتماع وتخصص هو في الفلسفة، كنا نموذجا للعلاقة الجادة التي حاول كل منا أن يحافظ عليها، تواعدنا على الزواج، اتفقنا أن يتم ذلك بعد التخرج، جاء «سليم » قادما من مدينة بورسعيد، ليعيش في بيت الطلبة مغتربا، لم أر فروقا اجتماعية بيننا رغم وضوحها الظاهرفي أكثر من موقف معلن وغير معلن؛ لم أعر ذلك اعتبارا أو اهتماما بتلك الفروقات الاجتماعية الواهية التي لاحظها الجميع إلا أنا، لم ألتفت لنظرات الزميلات والزملاء التي كان يكتمها هو ولا يبوح بها.. تعاهدنا على الحب والزواج، كل ماكان يهمني حبه وشخصيته وتقديره لمشاعري واهتمامه بكل مشاكلي وعلاقتي

بالآخرين، هذا كان كافيا لي في بداية علاقة في مهدها لم تواجه عواصف الحياة بعد، كنت على يقين من أن الحب يستطيع أن يفعل المعجزات ويغير الأقدار، طالما نحن مؤمنون به، حتما بإمكاننا تغيير الواقع.. لكنه فجأة اختفى في ظروف غامضة دون أن يخبرني أو يخبر أحدا، سألت عنه في كل مكان يمكن أن يتواجد فيه، لم أعثر له على أثر، لم أعد أراه، حزنت عليه، خشيت أن يكون حدث له مكروه، ولا يعرفه أحد غير زملائه، وهم لا يعلمون عنه شيئا، قتلني الخوف والقلق عليه، تصورت أنه تعرض لحادث، أو أنه يرقد في أحد المستشفيات ولم يستدل علىه، كل الهواجس والظنون المرعبة سكنت رأسي، لا شيء مر على ذهنك إلا وتخيلته.. حزنت بشدة لأنه لم يكن مجرد صديق كما كان يتصور البعض، كان أول رجل أحببته، بقيت على حالي ما يقرب من شهر لا يصلني أي أخبارعنه لا من قريب ولا من بعيد، إلى أن فوجئنا به في مظهر مغاير لما كان عليه قبل اختفائه، شخص أنيق يرتدي ملابس فاخرة، يقود سيارة شيفروليه على أحدث طراز، كأن ثروة مالية سقطت عليه من السماء وحولته من معدم إلى ثري في غمضة عين، رغم غرابة ما حدث للجميع من هيئته الملفتة، لم يقتلني غير شيء واحد ...

وصمتت أمي طويلا ثم استطردت حديثها بوجع بدا على وجهها ولم تستطع إخفاءه رغم مرور كل هذه السنين :

رؤيته وهو يصطحب فتاة بدت من عائلة أرستقراطية يسيران معا أمام الكل وهما متشابكا الأيدي، هي تتمايل وهو يكاد يحتضنها بعينه، لا شيء أقسى من الخيانة والغدر بدون سبب.. وتنهدت أمي :

كانا يمران من أمامي دون أن يلحظا وجودي، انفطر قلبي لما رأيته من منظرهما، لأنني لم أتصور أن «سليما » الذي أحببته وتعاهدنا على الحب والزواج هو نفس الشخص الذي أراه أمام عيني وهو يتخايل بفتاة جميلة، أمام الجميع دون خجل أو تفسير لهذا الانقلاب المفاجئ في حاله وهيئته.. كان كابوسا تمنيت ساعتها أن أصحو منه، ولكنه لازمني زمنا.. انقطعت أياما عن الكلية حزنا وكمدا مما رأيته وسمعته عنه، لم أكن أتخيل أن يخونني يوما، لم أصدق ما قيل فيه، كنت أكذب الروايات والحكايات التي نسجت حوله، شقيت بحسن ظني فيه. لم أكن أمتلك سلاحا واحدا للدفاع عنه بعد ما أفسد كل شيء، وأهدر كل المعاني والقيم والجمال الذي كان بيننا يوما، لم يحفظ وعده معي، أخذت وقتا طويلا لنسيان فعلته وزمنا لنسيان حبه، لم أعد ألتفت إلى الحكايات المريبة التي نسجت حوله، بعضها نال من شخصه وبعضها من سمعته عن كونه يتعامل مع جهات أمنية كمخبر على زملائه، الحكاية السهلة التي يمكن أن تنسج على أي طالب يطرأ عليه تغير في سلوكياته أو مظهره أو حتى طريقته في التعامل مع أصدقائه، كنت أدرك أن أكثرها وشايات، ولم أشأ أن أكذب أو أصدق ما

قيل عنه، فلم أكن أريد أن أزيد جرحي الغائر وجعا جديدا .

اعتدلت أمي في جلستها وكأنها تخلصت من عبء ثقيل على صدرها وأكملت حديثها معي بسخرية :

تجاهلت بحزن كل ما قيل حوله لأريح نفسي من عذابه، سواء أكان لف على بنت ثرية، أو أنه ورث عن عمه في المكسيك إرثا ضخما، حكايات ساخرة وموجعة كانت تروى عنه وأسمعها وأتمزق في صمت، انطويت على نفسي، ولم تراودني لحظة واحدة أن أقترب منه أو أسأله عما حدث؟ لأنه كان في كل مرة يتصادف رؤيته يحاول أن يهرب من أمامي، ولا يحاول أن يأتي ويفسر لي أسباب تغيره؟

ثم أخذت نفسًا عميقا وقالت بنغمة أدهشتني: لم أستطع وصفه بالنذالة أو بأي صفة تسيء له، كنت أحبه رغم فعلته، حزنت من نفسي التي طاوعتني يوما لحب هذا الرجل الذي غدر بي دون مبرر .

اختفى من حياتي، ولم أعد أراه أو أسمع عنه شيئا.. أكملت دراستي دون الالتفات إلى أي شاب أو محادثة أي رجل يريد أن يقترب مني، حملت قلبا جامدا غير قابل للحب إلى أن علمت بالصدفة أنه صار صحافيا وكاتبا كبيرا، وله مكانة مرموقة في المجتمع، لم أهتم بأمره كنت أسمع أخباره وكأنها لرجل غريب لم ألتقه

ولم أحبه، ليس لسبب غير أنني أصبحت لا أرى ما يقولونه ويرددونه عنه فالسمع غير الرؤية التي تكشف الملامح وتعرفين منها الحقيقة دون إخبار أحد، فالعيون تفضح الشخص الذي أمامك إذا كان رجلا سعيدا أم تعيسا حتى النذالة تكشفها العيون، ومع ذلك أصبحت الرؤية وعدمها شيئين متلازمين في حياتي بالنسبة لـ «سليم علوان ». ثم جئت أنت وأيقظت الحكاية القديمة التي حاولت أن أجعلها طي النسيان، ثم قالت بوهن :

يبدو أن ما يولد حيا في دواخلنا لا يموت أبدا، حتى لو أخفته السنون حتما تظهره الأيام، وبدأ الخوف يطاردني مرة ثانية منه.ولكن في هذه المرة عليك أنت.. هل فهمت سر خوفي عليك؟

صمتت أمي ..

في هذه المرة لم أعلق على كلامها، كان يبدو عليها التأثر باسترجاع ذكريات أقسمت ألا تعود إليها وعادت بسببي، علامات من الألم تعلو وجهها الجميل وعيونها الغارقة في ظلام بلا نهاية ما زال حبه نابضا في أعماقها،أوجعتني ذكريات أمي لأقصى حدٍّ؛ لم يفعل الزمن لها شيئا غير إخفاء وهمي لقصة حب حية بين وجدانها، كل ما تفعله تجاهها أن تنفض الغبار عنها من وقت لآخر بينها وبين نفسها، وجئت أنا لأكشف كل الأوجاع في لحظة واحدة، فلا يعرف أحد سر القلوب

غير أصحابها، كان واضحا عليها الألم الذي عانت بسببه سنوات من الخيبة والفشل في أول تجربة عاطفية موجعة، وآثارها لم تمح تماما من أعماقها رغم مرور كل هذه السنين .

هي ما زالت تحبه ..! أم يخيل لي؟ ياليت يكون جوابها بالنفي .

تمنيت أن أقول لها لا تحزني على هذا الحب الذي كثيرا ما يحدث بين الطلبة والطالبات في الجامعة، لكن الرجل الذي أحبته أمي ليس رجلا عاديًا إنه نفس الرجل الذي تعلقت به ويكبر إعجابي له يوما بعد يوم، ومع تفاقم إعجابي تتوالد مشاعر شك وقلق.. من أمي ومني تجاهه، أية صراعات وتناقضات ترمي بذرتها في هذه العلاقة الثلاثية؟

قاطعت صمتها: هل حاول أن يفسر لك تصرفه؟ أم أنك رفضت محاولته؟

- لم يحاول أن يوضح شيئا، وكأن الأمر كان يخصني وحدي، وأنه لم يكن له يد في هذه العلاقة، اخترت الصمت والابتعاد عن أي مكان يمكن أن يتواجد فيه، ولو صدفة، بعد ما تكشف لي أن الفتاة التي رأيتها معه لأول مرة لم تكن الوحيدة، بل ظهرت واختفت الكثيرات في حياته، لم يحزنّي ما عرفته عنه بقدر ما أحزنني حسن ظني فيه، واعتقادي بأنني كنت حبه الوحيد،

أصعب شيء يمكن أن يواجه المرء أن يُخدع من أقرب شخص يحظى بالثقة الكاملة فيه، ومن المستحيل أن يصبح في منزلة الخائن بعد أن كان الحبيب .

يا ليتك تدركين ما أقصده؟

لم أستطع أن أكتشف حقيقة ما تقوله أمي عن حبها الأول لأنها كانت شديدة الانفعال وهي تروي لي حكايتها ..

أحيانا نقسو على من نحبهم بدافع الحب ...

أصرت أمي على استكمال حكايتها عنه : الذي أريد أن أخبرك به أنني نسيته تماما، مع بداية معاناتي مع مشاكل الإبصار وفقدانه الذي تعودت عليه مثلما اعتدت على عدم رؤيته .

لمست في نبرة صوت أمي وهي تحكي لي عنه أسا وحزنا لم أعرفهما عنها من قبل .. صورة «سليم » اختفت من أمامي مع ضباب الرؤية .

ولكن فكرة نسيانها له أراحتني كثيرا ..

ثم تنهدت بالتقاط أنفاسها المتقطعة وصوتها المحشرج في حلقها: في هذا الوقت تقدم أبوك لخطبتي ورحب به الجميع وأنا أيضا، تزوجت رجلا اختارني وأحبني، أحببت فيه طيبة قلبه، وحنانه وعطفه واهتمامه، لكن

لم أستطع أن أقدم له كل طلباته وقتما يريد، فكان أحيانا يبحث عنها خارج البيت .

وزادت تنهيدتها التي لم تقصدها .

- كنت أعلم ذلك بإحساسي، لم أثبت عليه واقعة خيانة واحدة، عشت سنوات طويلة بين الشك والحيرة، والغضب، مثلما كنت أفعل وأنا مبصرة أقرأ وأكتب يومياتي، صرت أستمع للبرامج الإذاعية وخاصة البرنامج الثقافي والموسيقي اللذين كانا يشبعان لدي أحاسيس كثيرة مفقودة، عذاب العمى، ظلام في ظلام، الخيال وحده هو الضوء الذي يرى به الأعمى الوجوه والأشياء، وكان الخيال رحيما بي وحنونا،أعطاني فوق الخيال خيالات، حينما رزقنا الله بك كنت أرى ملامحك بضعف شديد، لكني ما زلت أذكرها؛ أنفك الصغير، وعيونك العسلية وشعرك الكستنائي الناعم وبشرتك الخمرية .

ثم التفتت نحوي وكأنها تراني: كيف صار شكلك اليوم؟

صحت غارقة في دموعي: صرت أشبهك تماما في شكلك وملامحك وتشابهنا الأكثر هو قلوبنا، نفس المشاعر، بنفس الخفقات، وكدت أقول لها لنفس الرجل ولكني خرست .

وازداد انهمار دموعي، حاولت أن تهدئ من روعي، لكن كان الوقت قد فات .

بكيت طويلا بين يديها وهي تحضنني وكأنني عدت طفلة صغيرة فقدت دميتها. كنت في حالة من المشاعر المتضاربة؛ كيف أحب رجلا اشتريت روايته بعد تردد، ولم أسع للحصول على توقيعه؟! إنني لم أره إلا في لفتة عابرة وسط زحام شديد.. هل كانت زيارته لأحلامي التي غرست بذور حبه في روحي؟ هل مشاعري نحوه ميراث من وجدان أمي انتقل إليّ بالدم. أحببت من أحبته أمي وإن كنت لا أعلم قصة حبهما الذي كان مصيره الأفول .

ما زلت أتساءل ما الذي أرسل طيف «سليم » إلى وجداني لأراه ماثلا أمامي.. يحدثني، كأنه الحب الأول في حياتي !

هل يصلني من أمي كراهيتها له كما وصلني حبها له؟

أحاول أن أنقي قلبي وروحي وأتطهر من أي شائبة علقت، أو أكون قد أخذت شغفا بالحب لرجل لم ألتق به إلا في أحلامي، والأكثر ألما الرجل الذي أحبته أمي وما زالت .

كانت الساعة قد قاربت على الواحدة بعد منتصف الليل .

أغلقت باب غرفتي بقوة وكأنني أريد أن أغلق كل أبواب العالم في وجه هذا القلب الأحمق، الذي يريد أن يجرني إلى طريق محفوف بالمخاطر والأوجاع .

كان يومي مختلطا كأحاسيسي بالحب والانتقام، والفرح واللهفة والحزن والخوف من المستقبل، الذي أجهله، ولا يُعرف ما قد يحدث فيه؟ فلا أحد يستطيع أن يتنبأ باللحظة القادمة مهما صحت توقعاته؟ !

حاولت أن أستعيد توازني النفسي من هول الصدمة، تصورت أشياء كثيرة عن «سليم علوان » ، لم أتخيل أنه كان حبيبا لأمي، كأني أقرأ رواية من روايات «إحسان عبد القدوس ».

ماذا يحدث لي؟ هل صارت الروايات قدري في الخيال والواقع؟

لماذا يحدث هذا معي؟، لماذا يخرج أبطال الروايات في حياتي هكذا ليدمروا حبا لم يولد بعد؟

هل جننت؟ أم الجنون هو حالي؟! منذ عشت في قصص وحكايات أبطال الروايات.؟! واختلاط الواقع بالخيال فلم يعد هناك فارق بينهما !!

قالت أمي: إن أبطال الروايات لا يخرجون منها وإن تشابهت صورهم في الواقع، صدقت أمي.. ولكنها خالفت كلامها حينما روت لي الليلة حكايتها مع «سليم

علوان ».. يكاد عقلي أن يخذلني ويذهب عني.. ليس أمامي غير إيقاف التفكير فيما تخبِّئه لنا الأيام «أنا وهي ». من جانبي سوف أسعى إلى أداء عملي الجديد على أكمل وجه، أحببت الوظيفة ولن أتخلى عنها من أول جلسة قراءة، ولن ألغي أول لقاء مع «سليم » مهما كانت الأسباب، لقد اتفقت مع مدير المكتبة على اللقاء ومناقشة روايته، ولا يصح أن أخلف وعدي رغم جبال الثلج التي تشكلت بداخلي نحوه. ولا شيء يمكن أن يذيبها، مهما بلغت درجة سخونته من مشاعر يمكن أن تتولد من لقائي مباشرة به .

أيقظتني الحياة على أمي، التي لم تبخل عليَّ يوما بحنانها واهتمامها، رغم إعاقتها التي أبصرت فيها أمورا كثيرة في الحياة لم أكن أراها لولا عماها .

كنت العين التي ترى بها دوما، أصف لها الأماكن والأشياء ووجوه الأشخاص، أما قلوب الناس كانت تكشفها لي ببصيرتها، ولا أشك يوما في إحساسها الصادق، وطالما وجدت هي في «سليم » أنه مخادع فهو حتما كذلك، وإن ظلت الأسباب غير معلومة، هي بطبيعة شخصيتها لم تدافع عن حبها ولم ترغب أن تعرف أسباب خيانته لها غير المبررة، الخائنون لا يجدون مبررات حقيقية لخياناتهم، الخائنون كاذبون دائما، لايوجد خائن صادق على وجه الأرض ولا حتى بين سطور الروايات .

هل عليّ أن أتعامل مع «سليم علوان » في أول لقاء على أنه خائن وكذاب، أم ماذا؟ أكاد أفقد عقلي؟

هل غيرته السنين، لكن الطبائع لا تتغير، ربما تخبو لكنها تعاود الظهور في أول مكاشفة حقيقية .

10

لا أنكر أنني أنتظره .

الحياة تسير بنا في موكب حافل بالأحداث اليومية، بين ما نريده وما نفعله، على أمل تحقيق الحلم، هذه الفرضية تجعلني دوما أكثر ارتباطا بالحكاية داخل الرواية التي تدفعني لأقرأ ما أريده في الوقت الذي يناسبني، أما الواقع الحياتي يجعلني أفعل ما أستطيعه في الوقت الذي يتناسب مع ظروف الآخرين .

في كل الأحوال لا أستطيع أن أنكر أنني أنتظر لقاء «سليم علوان » بشغف أكثر مما كنت عليه قبل أن تروي لي أمي حكايتها معه، لا أحمل له أي مشاعر سلبية ولا إيجابية، لدي إحساس متعادل نحوه. رغم ما علمته وما قرأته عنه، أستسلم لمشاعري نحوه، أي محاولة لتغيير دفة إحساسي تجاهه تصيبني بالاختناق،ما الذي فعله بي؟ ما هي حقيقته الغامضة بداخلي؟!، سأترك لمشاعري حرية تقرير مصيره في حياتنا .

الليلة في السابعة مساء لقاؤنا في جلسة القراءة تنتابني حالة من القلق والتوتر لبداية عملي كقارئة روايات مع روائي مشهور يحظى بجمهور عريض وشهرة واسعة لا تماثل تجربتي في الحياة بعيدا عن مؤلفي الروايات

الذين يسكنون غرفتي أتحدث إليهم؛ وأمارس كل أنواع الجنون معهم، تجربة حقيقية طالما حلمت بها وتمنيت اختلاقها يوما في جلسات المشاكسة مع أمي، ولما تحول الخيال إلى واقع خفت؛ أرتعش من داخلي لمجرد تصور وجودي على منصة القراءة بجواره وآلاف العيون ترقبني وما يمكن أن يحدث من ردود أفعال في الحوارحول كتاب ما، فماذا سيكون مع الرجل الذي كسر قلب أمي، وشغلني حد احتلاله لأحلامي، يتملكني إحساس غامض بأنني لن أحتمل وجوده بجواري، حالة من الارتباك الممزوجة باللهفة كلما اقترب موعد اللقاء، حالة من الارتباك الذهني التي سيطرت عليَّ منذ أن عرفت حقيقته وما فعله بأمي، مات جزء من لهفتي لكن مازلت أرغب في الاقتراب والتحقق بنفسي من أكاذيبه، ربما وجدت له عذرا منسيًّا بين طيّات السنين، يشفع له لهفتي الغامضة نحوه. أدرك حماقة العشاق عندما يصرون على فعل حماقاتهم وهم بكامل إدراكهم ووعيهم ويصعب التراجع، وهم يصرون على تكملة مسيرتهم نحو الوقوع في الحب .

أردت أن أرتدي زيًا بسيطا غير لافت،أحببت أن أكون على طبيعتي، رفعت شعري كعادتي خلف ظهري في ذيل حصان ملتوٍ حول نفسه، عقدته بقوة حتى لا ينفلت، وضعت مكياجا خفيفا، لإخفاء توتر ليلة الأمس، تعطرت بعطر أمي، استعرت شالها الأزرق الذي يناسب بلوزتي البيضاء المطرزة بالدانتيل مع البلو جينز، كنت

أتمني أن تراني أمي قبل ذهابي للقائه، ولكني صممت بيني وبين نفسي أن أصف لها هيئتي وتصفيفة شعري، حتى يمكنها تخيل شكلي، كانت تحدق فيّ كأنها تراني، أخذت تتحسس ملامحي وملابسي، وفجأة ثارت صارخة في وجهي :

- لماذا وضعت هذا العطر، إنه لا يلائم عمرك، ويأليتك تغيرين الشال الأزرق بالجاكت البمبي .

أدهشتني ثورة أمي المفاجئة في تغيير ملابسي وعطري وهي التي لم تلحظهما من قبل ، أو أنها لم تُبد ملاحظاتها على تفاصيلي الصغيرة، وكأنها تقرأ ما يدور في ذهني وأنا لا أدرك نتائجه فهي تعرفه بالتأكيد أكثر مني ، ولكني سقت في عدم الفهم الخفي بيني وبينها :

- ما ذا تريدين، وأنا أجهله؟ فيم تفكرين وأنا لا أعلمه؟

- لا أريد شيئا، كل ما في الأمر أنني أحببت أن تكوني أنت ولست أنا .

- وما الفرق؟، أول مرة أشعر أنك تنفصلين عني! دائما أضع عطرك وتضعين من عطري هكذا اختلطت روائحنا وأرواحنا، وأرتدي بعضا من ملابسك التي تلائمني، ولا أجد منك غضاضة في ذلك، لماذا اليوم تريدين أن أرتدي أشيائي؟ أنا لا أفهمك !

يا ليتك تكُفّي عن القلق والخوف، أنا بخير، سأتصل بك فور انتهاء جلسة القراءة، لن أجعلك تنتظرين حتى عودتي.. كنت أدرك أسباب اعتراضها على ما أرتدي وإن لم يكن قولها كوني أنت ولست أنا إلا رجما يحمل تداعيات شتى عميقة. هل ظنّت أنني أتقدم لـ «سليم علوان » في صورتها؟ لا أظن، فهي طيبة وحسنة الظن بالناس فما بالك بابنتها، وأنا كنت على غير ظنها الحسن بي !

تركت أمي لأول مرة وهي غارقة في هواجسها خوفا عليّ ورعبا منه وخاصة بعد أن روت لي ما كان بينهما. كدت أقول لها لا تخافي سأنتقم منه الليلة، سأرد لك ما أخذه منك هذا المساء. ولكني لم أقل شيئا، انطلقت للموعد وأنا أموت رعبا ولهفة من مقابلته .

أدرت مذياع سيارتي على البرنامج الموسيقي، لعل الموسيقى تمتص بعضا من توتري، كلمات أمي «بأن أكون أنا وليس هي » تعيدني لمواجهة «سليم » بشخصيتي وليس بشخصيتها في هذا الصراع الداخلي الذي لا يكف عن رأسي منذ تلك اللحظة التي أخذتني نحوه بقوة إلهية، ما الذي أفعله بنفسي ولا أدري؟

وجدت د.علي بسيوني ينتظرني في بهو المكتبة وعلى وجهه ابتسامة أراحتني . تقدمت نحوه ودلفنا معا إلى قاعة الندوة، أخبرني أنه سوف يصاحبني في هذه الجلسة لتعريف الجمهور بفكرة جلسات القراءة، وأن

يكون أيضا في استقبال «سليم علوان » في زيارته الأولى للمكتبة، ثم يترك لي إدارة الجلسة كيفما أشاء .

بعد لحظات لمحته قادما نحونا، يرتدي «بليزر » كحلي غامق وقميصا أبيض وبنطالا بيج، كان يبدو نجما سينمائيا وهو يقترب بخطوات ثابتة باتجاهنا، يسير بخطى واثقة على السجادة الحمراء، وما إن دخل القاعة حتى ضج الجمهور بالتصفيق والترحاب بالروائي النجم .

جلست على منصة القاعة بين مدير المكتبة وبينه، ضربات قلبي ترج جسدي كله من سرعة الخفقان .

لأول مرة أجلس أمام جمهور عريض، بين هذين الرجلين .

أخذ «د. بسيوني » الميكروفون رحب أولا بالضيف الكبير، تعالى التصفيق ثم التفت نحوي وعرف الجمهور قائلا :

- يسعدني أن أرحب بالحضور الكريم، وأن أقدم لكم الليلة الأستاذة «مي عبد الحميد » التي تتولى جلسات القراءة ومناقشة الأعمال الإبداعية التي سيتم الإعلان عنها قبل كل جلسة حول كل ما هو جديد وتراثي في عالم الإبداع والفكر والأدب .

زاد حماس التصفيق، وهذا منحني شعورا بالارتياح فابتسمت برضا بهذا الترحيب، وهدأت دقات قلبي قليلا، ولمحته ينظر إليّ بطرف عينيه من تحت نظارته الطبية، وجاء دوري في الحديث .

قلت: يسعدنا اليوم أن يكون ضيف الجلسة القرائية أحد نجوم الرواية المعروفين، الحائز على عدة جوائز عربية ومحلية ولديه روايات تاريخية وكتب في النقد الأدبي والفلسفة الصوفية، يسعدنا أن تكون روايته الجديدة «سأحبك للأبد » هي موضوع جلستنا في حضرته، ومشاركتكم لكاتبنا الكبير بالأسئلة التي ترغبون .

كنت هادئة تماما في كل ما قدمته عن «سليم علوان » ، دون أن أرتجف أو يصيبني أي اهتزاز في نبرة صوتي وكأنني متمرسة في تقديم مثل هذه الندوات .

في البداية نود لو نستمع من كاتبنا حول روايته الجديدة ...

أخذ «سليم » يحكي عن عاداته في الكتابة والأجواء التي يشرع فيها بالكتابة : «منذ زمن بعيد أدركت أن الكتابة هي قدري الذي لن يتأتى إلا بالالتزام الصارم، أمارسها بشكل يومي، أستيقظ مبكرا، أظل أكتب حتى العاشرة صباحا ثم أعاود الكتابة في المساء كواجب يومي، سواء مقالاتي أو تأملاتي، لكن الرواية لها وضع مختلف فهي لا تحب شركاء، أتفرغ لها تماما حد العزلة،

أغلق كل الهواتف، وأبتعد عن كل ما يمكن أن يشتت أفكاري عن فكرة الرواية، وإذا بلغ الأمر أسافر إلى مكان بعيد عن أي ضوضاء تفسد مزاج الكتابة. لا يوجد ما يسمى الوحي إنما الدأب والمثابرة والاستمرارية هي التي تولد الوحي، وهي التي تشحذ سلاح الإلهام، الكتابة هي التي تؤكد لي كل يوم أنني على قيد الحياة.هكذا أصبحت أعانق الكتابة كل صباح منذ سنوات طويلة.. أعانقها بشغف ومحبة..، ففي تمام السادسة صباحًا أجلس إلى مكتبي، سواء في العمل أو في البيت، في حضرة الورقة والقلم فيما مضى، أو أمام شاشة الكومبيوتر حاليًا.. أكتب نحو ساعتين أو ثلاث في صمت تام، لا حركة.. لا صوت.. قد أستمع لبعض الموسيقى الهادئة بجواري، ففي حضرة الكتابة لا يعلو صوت فوق صوت الكلمة !».

ثم بدأت المناقشة ...

جاء السؤال الأول من فتاة عشرينية تسأل بدلال :
يقولون إن هذه الرواية هي تجربتك الشخصية؟

أجاب: نعم هي تجربتي الشخصية .

تعالت الأصوات بالصراخ والضحكات، والهمهمات.. كادت أن تنهار الندوة من أول سؤال، لكن «سليم » بحرفيته استطاع أن يهدئ الجلسة بكلمة واحدة :

- لو سمحتم لي.... كل كاتب لديه بعض منه في شخصيات روايته وخاصة الشخصية المحورية في الرواية .

ثم استطرد: في هذه النوعية من الكتابات التي يغلب عليها العاطفة الرومانسية غالبا ما يكون هناك جزء كبير من شخصية البطل، فلا أحد يستطيع أن يصمد أمام المشاعر، وخاصة لو كانت مشاعرحقيقية، لكنها لا تصل إلى السيرة الذاتية أو الاعترافات العاطفية، يمكن أن أقول إنها تجربة مرت في حياتي .....

ساد صمت لمدة ثوان ثم بدأ البعض في طلب سؤال آخر، في هذه المرة كان طالب السؤال شابّا في أواخر العشرينيات: هل الاعتراف بالحب من جانب الرجل للفتاة التي أحبها يعتبر ضعفا منه؟

ابتسم «سليم علوان »: مبدئيا الحب ليس ضعفا، لكن الرجل الشرقي في مجتمعنا يرى في اعتراف الرجل بالحب دليل على ضعفه وقد تستغلها الحبيبة كنقطة ضعف لديه، في رأيي أن الاعتراف بالعاطفة النبيلة لا تضر صاحبها، بل إنها تزيده قوة واحتراما، وأنها بمثابة حماية وثيقة للحبيبة .

أخذ جمهور الحضور يسأل، والروائي يجيب عن الأسئلة الخاصة بالعلاقة بين الرجل والمرأة، ومن الذي يبدأ؟ وكانت هناك أسئلة كثيرة بعيدة عن سياق الندوة وكان

بلباقته الواضحة يدخلها في إطار الموضوع..
المناقشات على مدى ساعتين ونصف دون أن يشعر أحد بالملل بل على العكس كان يجيب على الجميع بكل رحابة وسعادة واستمتاع مما أكسب الندوة تميُزا ونجاحا ملحوظا من جانب الحضور..الذي لم يغادر مقاعده طوال المناقشات ..

بعد اكتفاء الجمهور من أسئلته تناولت الميكرفون من الضيف موجهة له سؤالا، أوضح ارتباكه المتخفي: ألست ترى أن كلمة أبدية كلمة مجازية، فلا توجد أبدية لأي شيء في الحياة ولا في الحب بطبيعة الحال، كيف طوعت الحب للأبدية أم الحب بطعبيته أبدي في المطلق؟ في تصوري أن مسألة الأبدية في الحب لحظة محسوبة لها بداية ونهاية، ألست معي؟

التفت نحوي محدقا في ملامحي، وكأنه أراد أن يسألني من أنا؟

ثم أردف قائلا: هكذا يتصوره العاشقون، كل عاشق يتخيل أن حبه سيظل خالدا إلى الأبد، وهذا أمر مستحيل بالتأكيد، الأبدية هي لحظة الحب ذاتها. يمكننا أن نخنق الحب، أن نتجاهله، أو نعمل له تشويشا، لكن لا يمكننا أبدا أن نخرجه من دواخلنا. أعلم من تجربتي أن الشعراء كانوا على حق إذ يقولون أن «الحب أبدي ».

انتهت الجلسة بالتصفيق والترحاب بالضيف، ولكنها لم تنته بيننا، كان هناك شيء موصول بغموض لم ينقطع، بدأ للتو .

خرج «سليم علوان » من قاعة اللقاء مودعا جمهوره ومصافحا مدير المكتبة، وحينما جاء دوري في المصافحة، ضغط على يدي بقوة، مؤكدا شكره وامتنانه لإدارة النقاش وقراءة بعض نصوص رواياته، التي علق عليها قائلا إن لي صوتا حساسا في قراءة النصوص وبأنه يتنبأ بنجاح ندواتي القادمة. يقول ذلك ويده ممسكة بيدي خوفا من أن تفلت من بين يديه، كان حريصا على توديعي بشكل مختلف ومميَّز ..

غادر المكان تاركا فراغا عميقا بداخلي، كنت أريد أن أحاسبه، أعرف منه سبب هجر أمي بدون سبب؟ لكنّي لم أقو على مواجهته أو حتى النظر في عينيه التي يطل منهما مكر ودهاء رجل عركته الحياة وانتصر عليها .

عدت إلى بيتنا منهكة، كان الصمت يحيط بكل ركن من أركان البيت، هدوء وسكينة أعرفها حينما تخلد أمي إلى النوم، أسيرعلي أطراف أصابعي حتى لا أثير جلبة توقظها أو تقلقها، لم أشأ أن أثقل عليها بما حدث في المكتبة، حمدت الله أنني وجدتها نائمة .

أغلقت خلفي باب غرفتي بهدوء، ارتميت بجسدي المرهق فوق فراشي.. غرقت في بكاء صامت، كنت حزينة للغاية ولا أعرف لماذا؟، ليتني ما التقيت بهذا الرجل الذي تسبب في تعاسة أمي ذات يوم، وأخذ مني راحتي بكل بساطة، ما يشغل رأسي ويملؤها حيرة: هل يمكن لإنسان سيء أن يكتب أدبا جيدا؟ هل يمكن لإنسان لا أخلاقي، أن يكون مبدعا وفنانا ومنتجا لفن رائع؟

قرأت ذات يوم أن «جان جاك روسو » صاحب المؤلفات في التربية يتخلى عن تربية أبنائه الخمسة تاركا إياهم في ملجأ للأيتام! وأن «بيكاسو » الفنان الأسباني المعروف أساء معاملة النساء، فمن بين نسائه السبعة، أصيبت اثنتان بالجنون، وانتحرت اثنتان .

لماذا نعتقد أن على المبدع أن يكون إنسانا أفضل منا؟ فهناك روايات ولوحات جيدة صورت شيئًا سيئًا، كما فعلت لوحة بيكاسو «جرنيكا » أو رواية فلاديمير نابوكوف «لوليتا » ، لماذا أوقعت نفسي في بئرالحيرة، أليس من الأفضل أن أغلق هذا الباب في وجه هذا الرجل؟

لكني فشلت في ردعه وخضعت لقلبي .

ما الذي حدث لي الليلة إثر لقائه هل القراءة جعلتني أتجنى على الواقع البغيض بفلسفة خيالية خرقاء؟

11

واليوم جئت لتسألني من أنا؟

استيقظت مرهقة للغاية، لا أريد فعل شيء غير سماع موسيقى هادئة بجوارالبحر.. أحدق في متاهات الفراغ، لعله يمحو من رأسي عذاباته، لكن رأسي ثقيل لا أستطيع رفعه من على وسادتي، ما لهذا الصداع الشقي الذي لا يغادرني؟! لماذا لا تمطر السماء؟! أرغب بشدة في السير تحت أمطارغزيرة.. أغتسل من إرهاقات ليلة الأمس، جسدي الضعيف يخذلني، ويعيدني إلى فراشي شبه محمومة..لا أرغب في شيء غير أن يرحل عني هذا الوهن.. نافذة حجرتي اللعينة هي السبب، تركتها مواربة فأباحت للهواء البارد أن يتسرب غير مبال بما أحدثه في أوصالي من وجع وتكسير لعظامي...ما هذا الضجيج الذي يزعق في أذني من أين يأتي؟.. إنه هاتفي المحمول الذي تحت غطائي التقطته نصف نائمة.. مغمضة العينين.. يأتيني صوت أعرفه ولا أميزه..أجبت بتثاؤب: ألو .

جاء الصوت بنغمة جادة: صورتك لم تفارق خيالي طوال ليلة الأمس .

أحاول أن أستفيق: من المتكلم؟ من أنت؟

- أنا الذي أريد أن أعرف من أنت؟ إنني على يقين أني رأيتك من قبل؟ !

- من حضرتك يبدو أن الرقم خطأ؟

- لحظة من فضلك .. لا تغلقي الهاتف .

- لا أفهم شيئا من كلامك، يبدو أن حضرتك تقصد أحدًا غيري .

- ألست أنت قارئة الروايات؟

- نعم .. أنا، لكن من أنت؟

- أنا من قرأت روايته بالأمس وصوتك وملامحك قلبت حالي.. أنا متأكد أني أعرفك وأنني التقيت بك من قبل، لكن ذاكرتي لا تسعفني .

قاطعته بشدة: مازلت لا أفهمك ! يبدو أن هناك لبسا بيني وبين من تريد محادثتها .

لا .. إنني أريدك أنت ، وأريد أن أعرف من تكونين؟

أصابتني حالة من الاضطراب، والخوف ما الذي اكتشفه «سليم » ويريد التحقق منه، هل نجحت خطتي الساذجة بالعطر وشال أمي في إثارة ذكرياته ؟

يالي من حمقاء إنها سنين بعيدة، وأحداث ومواقف وتقلبات زمن لا يمكن أن تظل باقية دون نسيان حتى الآن!! هل ما زال يذكرقصته مع أمي ، ولم لا ؟!، وهو الذي كتبها في روايته «سأحبك إلى الأبد »

لم أحتمل حواره على التليفون، لم أستطع أن أكمل معه الحديث أفاقني من حالة الوهن، أغلقت الهاتف وأنا في شدة الارتباك، ماذا يريد مني؟ هل أنا في حلم؟ يعاود الاتصال مرة ثانية ولا أجيب عليه؟ أريد أن أتحقق من نفسي إذا كنت في يقظة أم في حلم منام.. أقلب في هاتفي لأتأكد أنه كان المتصل بالفعل.. ماذا يريد مني؟ وأنا التي كنت عازمة على أن أنتقم منه وأحيره.. جاء هو ليقلب كياني ويضعني في متاهة الحيرة .

لو لم يكن هو «سليم » بماضيه مع أمي..لكنت أسعد امرأة في العالم، لكن ما جاء به إليّ هي صورة أمي ولست أنا .

يالي من تعيسة فقدت عقلها كلما أنتوي الانتقام منه يحدث ما لا أتوقعه .

ليس من طبيعتي الانتقام، ولا أحب أن أعيش دور المنتقمة، حتى ولو كنت أنتقم لحب أمي، هذا الرجل لا ينبغي أن يدخل حياتنا، ليس له مكان بيننا .

ما ارتضت به أمي في الماضي لن أرتضيه أنا في الحاضر، وإذا كان هناك رجل لفت انتباهي وأعجبني وأخرجني من عزلتي، فلا ينبغي أن يكون هذا الرجل الذي خدع أمي ذات يوم، وحطم قلبها، وترك ندبة في روحها لم تندمل حتى الآن .

حاولت أن أستفيق من حالة النوم واللا يقظة التي أفاقتني عليها مكالمته المفاجئة، نهضت من فراشي باحثة عن أمي.. ولكني لم أجدها في غرفتها، سرعان ما تبدد خوفي عليها حينما سمعت صوتها القادم من اتجاه المطبخ وهي تدندن لحنا غير واضح، نبهني لمكانها أدركت أنها صاحية بمزاج رائق هكذا تفاجئني بإعداد الإفطار حينما تستيقظ رائقة، وهذا سبب كافٍ لإخفاء سر المكالمة الصباحية عنها حتى لا أعكر صفو مزاجها.. قبلت يديها وساعدتها في الجلوس على مقعدها،وعدلت من خصلات شعرها المنفلتة التي أخفت نصف وجهها الجميل الذي يضفي التفاؤل على روحي كلما أصبحت عليه، قلت لها: أنت دائما شاغلة نفسك، ارتاحي سأكمل تجهيز الإفطار .

- كيف كانت ندوتك بالأمس، غالبني النوم، ولم أستطع انتظار عودتك و ...

قاطعتها بلا اهتمام : ندوة عادية ، أكثر ما تميزت به ، مشاركة أعداد كبيرة من الشباب والشابات الصغيرات في السن .

لم تعلق أو تستوضح التفاصيل.. ارتشفنا قهوتنا على مهل في جلسة شبه صامتة لم يتخللها غير كلمات بسيطة عن أحوالنا العادية، كانت ردود أفعالي مقتضبة، أشعرت أمي بأنني لا أريد أن أحكي كعادتي في أموري الشخصية؟، أحترم قدرتها على استيعاب فهم نفسيتي حينما تشعر بالقلق تجاهي ولا تريد أن تضغط على جرح قد يندمل وحده..هذه إحدى ميزات أمي التي أعشقها، لا تلح رغم أنها تريد بشدة أن تطمئن عليّ .

لم نستغرق وقتا كعادتنا الصباحية في تناول إفطارنا، كانت كل منا تريد أن تنفرد بنفسها بعيدة عن الأخرى وكأننا كنا نخشى أن نتحدث معا حول نفس الشخص، فاخترنا الصمت وتجاهل كل منا عن عمد عدم الكلام حول «سليم علوان ».

عدت إلى مدينة الكتب التي أسكن بين جدرانها، أرتب جلسات القراءة القادمة، ومحاولة نسيان ما كان من مكالمته التي أربكتني، وجعلتني لأول مرة أخفي شيئا عن أمي .. مهما كان صغيرا ما يحدث معي لا يصدق.. أيقنت ارتباكي من نبرة صوتي.. ولم تفتح الحديث معي حتى لا تجدد أوجاعها .

عادت صامتة إلى غرفتها في حالة وجوم غير البشاشة التي كانت عليها قبل أن تسألني عن أخباري، فطنت بحدسها أن الندوة لم تحدث أثرا طيبا في نفسي.. أحسستها من ملامح وجهها .

التزمنا الصمت نحن الاثنتين فكلانا تحمل أسبابها الخاصة التي تخشاها .

أخذت أرتب عناوين الكتب التي أنتوي قراءتها تباعا، لم يمض وقت طويل حتى سمعت صوت خطوات أقدامها يعود نحو غرفتي، انتفضت من مكاني، فتحت الباب قبل أن تصل إليه وتتحسس مقبضه. وجدتها تحمل لفافة من الأوراق معقودة بشريط وردي من الساتان اللامع مثل الذي نراه في الأفلام ..

حاولت أن أقنعها كي تجلس معي قليلا.. لكنها رفضت بعد ما أعطتني الأوراق بطريقة خاطفة كساعي البريد الذي يسلمك الخطابات ولا ينتظر منك سماع كلمة شكرا...قالت بلهجة حاسمة : «اقرئي على مهلك » ، وتركتني أتخبط في تخميناتي وعادت مسرعة إلى غرفتها بعصاها البيضاء حينما تريد أن تسرع في الخطى دون تعثر. تركتها تفعل ما تريد، لم أكن في حالة تسمح بالمناقشة .

فلم أفهم ما تقصده ..

أخذت الأوراق في دهشة صامتة، افترشت أرضية غرفتي بما تحتويه هذه اللفافة، وجدت عشرات الرسائل والصور الموثقة باسم «سليم علوان » ، وصورا جمعته بأمي في مناسبات جامعية وصورا التقطت لهما بمفردهما كانت أمي تبدو في قمة سعادتها وابتساماتها

النابعة من قلبها التي لم أر مثلها، يوميات متفرقة بخط يد أمي في تواريخ متباعدة. رسائل عمرها أكثر من أربعين عاما، تحتفظ بها وحدها .

لم تدهشني كل هذه الأوراق وإنما الذي أدهشني، وفجر تساؤلات لا حصر لها، احتفاظها بعناية فائقة بهذه الأوراق طوال هذه السنوات التي انقضت بعد افتراقها عمن أحبته، لم يخطر على بالها أن تمزقها أو تحرقها مثلما يفعل الكثيرون عندما تموت الحكاية ولا يبقى منها غير الذكريات.. الأمر معها مختلف..فهي لم تكن مجرد ذكريات عفا عليها الزمن..إنها ذكريات تقاوم الزمن وتتحدى النسيان.. إنها تشكل لها أنبل المشاعر التي عاشتها... آه يا أماه مما عانيته ومازلت تعانينه! الحكاية ليست قصة حب وانتهت، الحكاية أكبر من أن يطويها النسيان لامرأة مثل أمي..ترى الحياة بمنظور الصدق والتفاني والإخلاص لمن أحبه قلبها يوما ..

تنتقل خواطري الدامية إلى قوة ذلك الحب الذي جعلها قادرة على إخفاء ما يجسد ذلك الحب عن والدي طوال تلك السنوات رغم عجزها عن الإبصار!.. هل هي أحجية من أحاجيها المدهشة؟ !

لم يدفعني فضولي لأن أسألها كيف تسني لها ذلك فلا شك أن إقامتها في بيتها الذي تربت فيه، وعاشت فيه، وتزوجت فيه، مكنها من أن تخفي أيقونة حبها .

اعتدلت في جلستي وأخذت أقرأ ..

الورقة الأولى :

«سيبقى ما بيننا هو سرنا الجميل، الذي نخاف عليه من عيون الآخرين، كم جميلا أن يكون لنا عالمنا السحري، الذي لا يعرف طريقه غير الورود والياسمين، وشجر المانجو والنخيل، تلك الطبيعة الخالدة حافظة الأسرار، صباح الورود يحمل صباح النسمات والروح الهائمة في ملكوت طبيعة لا تبغي غير الجمال، الذي صنعه الإله من أجلنا، نعم من أجلنا نحن أصحاب القلوب النقية، التي تعشق الحياة وترى جمالها، في هذا الجمال المسروق من العالم القبيح الذي يحيط بنا، ولا نقوى على مقاومته إلا بالكلمات «سلاحنا الوحيد ».

لو عرف العالم سرنا العظيم لتغيرت خرائط العالم الجغرافية والمناخية، لو عرف العالم سرنا الجميل، لأمطرت السماء طول العام، واختفت الرياح والزوابع، وسكنت العواصف، ومالت الشمس على البسطاء، ونزل القمر من سماه ليجالس الفقراء في لياليهم المظلمة، لكن الأسرار تظل أسرارا حتى لا تفقد سحرها .

« صباح الورد » كلمتان ذهبيتان، توقظان الحب من مكامنه القديمة، لجمال نائم في انتظار قبلة الحياة من أمير الأحلام، تأتي صباحاتك اليومية حاملة عطر حبنا، يعيد معه سحر رقصة البجعات في بحيرة

تشايكوفسكي، وموسيقى شهرزاد لكورساكوف، وقصيدة لدرويش، وقصة لتشيكوف، هذا العالم المليء بالأسرار الذي يشبه عالمنا السري الذي لا يعرفه أحد غيرنا ».

وفي ورقة ثانية نصفها مطوي ونصفها معتدل يشوبها شكل من أشكال كرمشة الزمن التي تدل على محاولة إخفائها عن العيون :

تأتي الأحلام غالبا كما يفسرها «فرويد » على ما نحن عليه، لكنها من المؤكد ما تكون ناقصة وغير مكتملة، أستيقظ على إحساس شديد بالعطش لما كنت عليه من حرمان، أحاول أن أرتوي برشفة ماء من الدورق الذي بجوار الفراش، لكن ماء اليقظة لا يروي عطش المنام، كان حلما غريبا مرتبكا مثل حال يقظتي، حينما أتحدث معك هاتفيا، ينتابني شعور بالارتباك رغم أن ما يصلني منك هو صوتك فقط، وليس أنت بكامل وجودك الفعلي، في حلم المنام كان صوتك أكثر اقترابا حينما طلبت مني أن نلتقي، كانت الساعة في الرابعة فجرا ولم تكن الشمس قد أخذت مكانها في دورة الحياة بعد، حتى أرى ملامحك الهاربة دوما مني! ملامح روحك التي تغلب عليك في كل مرة أراك فيها، فلا تحمل ذاكرتي أيا منها بعد اللقاء، قلت لي في المنام : «سأكون بالجوار » ، تماما مثلما حدث ذات يوم قريب في اليقظة، لكننا لم نلتق يومها لظروف طارئة، ويومها استسلمت للقدر

وعدت أحمل أول خيبة بيني وبينك، وأجيب عليك في المنام سأعد نفسي سريعا لموعدنا،وأبحث في خزانة ملابسي عن ثوب يناسب فرحة اللقاء، كان ثوبا أبيض فضفاضا من الحرير الشفاف، أسرعت الخطى إليك، أجدني في مكان مرتفع، مظلم ولكنه ظلام غير مخيف، هذا الظلام الممزوج بضوء ما قبل بزوغ الفجر بقليل، تلك اللحظات التي أعشقها قبل حدوث الفعل بقليل، وأجدني أتخبط في رجل غريب نائم فوق سطح المكان الذي أهرب منه إليك، وأرى مع بزوغ نور الصباح عمالا على خلفية المكان لا أعرف ماذا يفعلون؟، أطلب منهم وضع السلم في مكانه حتى أتمكن من الصعود إليك، لكنهم يفشلون، أتلفت حولي لأجد سلما أكثر أمانا فأرتقيه، أجد يد شاب مجهول يساعدني على الهبوط بأمان، وأجدك واقفا في طريق يؤدي إلى بيتنا القديم، ترتدي قميصا مشجرا مثل قمصان هاواي .

أقترب منك فأراك تشير إلى بيتي القديم، أسبقك إليه، ولكنك لا تأتي، يتلاشى وجودك كعادة الأحلام، أرى امرأة تشبه غانيات الأفلام تغمز بعينها وتتلمظ بالألفاظ، يزيد قلقي وخوفي من غربة المكان الذي يتبدى لي أنه بيتي القديم، أستيقظ منتفضة في أشد حالات العطش، فأجد بجواري دورق ماء أرتشف منه مرتين ولكنه لا يروي عطش حلمي الناقص. أريد أن أرتوي منك ."

ما كل هذا الحب الذي أحبتك فيه أمي، يالتعاستي، ويالروعة هذا الحب يا أمي !!

كيف لهذه المشاعر التي تحتوي العالم، بل الكون كله أن تتحول إلى هشيم تذروه رياح الغدرمنك؟ ماذا فعلت بها؟! كيف تسنى لك أن تطعنها في أنبل ما قدمته لك من مشاعر احتوت كل وجودك؟! كيف طاوعتك نفسك لتفعل ما فعلته بها حتى أنها الآن لا تطيق سماع اسمك؟ !

لم أستطع قراءة المزيد .. قضيت ما يقرب من ساعتين موزعة الخواطر، ثم بدأت ألملم الأوراق فلمحت رسالة بخط مختلف، وكأنما الأقدار تسوق مشاعري إلى وجهة أخرى بدت لي غامضة .

العزيزة راجية :

أرجو أن تعلمي أن الحياة أكثر تعقيدا مما تصورناه، وأن هناك ما دفعني إلى الاختباء من عيونك التي كانت تسرق النوم من عيني، ما الذي يمكن أن أقدمه لك؟،أنا القادم من بعيد لا أحمل غير هموم شاب في الغربة يبحث عن قوت يوم بعد يوم ومتابعة دراستي وأحلامي، لم يكن في استطاعتي أن أقدم لك كوبا من الشاي، كأقل شيء مما تقدمينه لي ولو لمرة واحدة، قد يبدو موضوعا تافها وبسيطا ولكنه كان يقتلني داخليًا، فما بالك بحياة كاملة لا أستطيع أن أوفرلك فيها أبسط

فروض المعيشة، أحببتك أكثر من حبي لذاتي، لكن كان هناك دوما صراع يمزقني لتتوزع مشاعري بين ما أريده لك وما أريده لنفسي، وافقت على مضض على طلب بعض المؤسسات التي أرادت أن أكرس جهدي لتطييب الخواطر بالمقدار الذي يسمح لهم بمعرفة كل ما يدور من حولنا،ولم يكن لدي حق الرفض أو الاختيار كانت المفاضلة أن أبتعد عنك وأكون نذلا في نظرك على أن آخذك إلى حياة شاقة لا تحتملين صعابها، كان الدافع الوحيد الذي جعلني أطيق الابتعاد عنك «الكتابة » التي كانت السبيل الوحيد للخروج من حالة الفقد، التي تصورت حينها أنني وجدت فيها بديلا عن الحب والزواج، معادلة ناقصة في الحياة لكنها الحياة نفسها هي التي وضعتني أمام اختياراتها الصعبة، وكان عليّ الاختيار واخترت الكتابة التي أخذتني إلى عوالم ظننت أنها لا تناسبك، ولكنني أدركت خطأ ذلك بعدما سبق السيف العذل كما يقولون، أنا لا أبرر ما تعتبرينه خيانة مني، ولكني شئت أن تعلمي أنك ستبقين دوما معي .

...اغفري لي لو كان في قلبك ذرة حب لي ".

أطبقت على رسالة «سليم » بكفي حاملة كراهية العالم له، أية قوة في العالم تجبرإنسانا أن يولي ظهره للحب، ما الإغراء الذي جعله يترك قلبا نقيا إلى هذا الحد؟، ماذا فعلت أمي غير أنها قدمت قلبها لك مليئا بالحب والإيثار؟ !

واليوم تسألني من أنا؟

أنا ابنة من غدرت بها، انسقت وراء أحلام كاذبة وتركت خلفك عذابا لا أحد يعلم إلى أي مدى عاشت فيه. والذي ربما عجل بفقدانها لبصرها .

أمي التي فقدت بصرها رويدا رويدا لم تفارق ابتسامتها شفتيها يوما، كانت تحتضنني وتقول إنني حبها الوحيد والكنز الذي حصلت عليه من الحياة، وتمسكها بزواجي هو حلمها بأن تكون لها أسرة كبيرة وأحفاد تحتضنهم .

قطع سيل أفكاري صوت هاتفي المحمول الذي جاء حاملا صورة «سليم » للمرة العاشرة على التوالي.. أجبته في هذه المرة وقلبي يمتلئ غيظا منه .

- أريد أن أراك، أنت لا تدركين حجم الحيرة التي بداخلي، لدي أمر هام أود مناقشته معك .

خذلني ضعفه وإصراره: إذا نلتقي غدا .

قال بلهفة: لماذا لا يكون اليوم؟

- الثالثة عصرا؟

- يناسبني جدا .

أخذت ألملم أوراق أمي المبعثرة ورسالته الوحيدة التي أدمت روحي، صور و كتابات ورسومات بالقلم الرصاص

وأخرى بألوان الباستيل، حياة صامتة عاشتها مبصرة وفاقدة للبصر، لكن من المؤكد أن بصيرتها ظلت مضيئة في أعماقها لتعايش ذلك الحب الذي لم تنطفئ جذوته .

ماذا حدث لي؟ لماذا وافقت بهذه البساطة على مقابلة الرجل الذي غدر بأمي؟، هل جننت؟ إنه الرجل الذي خلب عقلي وخذل قلب أعز الناس في حياتي؟ ماذا دهاني؟ يبدو أنني تحولت إلى شخصية المنتقمة وأنا لست كذلك؟

هل أصارحه بكينونتي أم أتركه يعرفها بنفسه؟هل أسأله عنها أم أتركه يقول ما لديه، لابد أن لديه شيئا ما، وإلا لماذا يصر على طلب مقابلتي بهذا الإلحاح؟!، لن أبوح بسر أمي مهما حاول معرفة أوجه التشابه بيني وبينها، هي التي حافظت على سرها طوال هذه السنوات ليس من حقي إفشاء ما أخفته عن العالم كله، أمي وثقت فيّ وأعطتني أوراقها وهذا لا يعطيني الحقّ لكشفها حتى لو كان للرجل الذي أعجبني فهو حبيبها الأول من قبل أن يشغل تفكيري ليل نهار .

إنه لم يعد ذاك الحبيب الذي أحبته أمي في صباها، إنه الآن واحد مختلف في هيئته وملامحه وتأثيره في المجتمع، إنه أحد المثقفين الكبار المحسوبين على الدولة، متواجد في كل المناسبات والمحافل القومية والدولية، حتى يختلط وصفه هل هو سياسي يهوى الأدب أم أديب يعشق السياسة، مقالاته تحمل ألغازا

وأفكاره تحتمل التأويل، يهلل القراء بكتاباته، يحلل السياسيون المحنكون مقالاته، تطفو آراؤه بين سطور كتاباته، أما رواياته فهي غالبا ما تحمل رموزا تثير جدلا حول أبطاله، هل هم حقيقيون أم صنعهم من خياله؟. لكن من المؤكد أنه لا أحد يستطيع أن ينكر وجوده كاتبا ومفكرا وروائيا كنموذج لهذا الزمان .

12

مشاعري نحوه مختلطة بين الحب والكراهية والانتقام

.

لماذا يأتي الحب بعد طول انتظارمخلوطا بالسم
مغموسا بالوجع هكذا، حياتي تشبه حياة «سيزيف »
الذي حكمت عليه الآلهة بأن يدحرج صخرة بلا انقطاع
إلى قمة الجبل لتعود وتهوِي إلى الأسفل بسبب ثقلها.
فقد ظنوا -ولسبب معقول-أنه ليس هناك عقاب أبشع
من العمل الذي لا جدوى منه، والذي لا أمل منه إلا
التعذيب فقط، تماما لا أمل في مقابلتي له غير العذاب
الأبدي، هكذا أسير في الحياة ممسوسة بالروايات
والقصص والحكايات التي لم يطرق بابي غيرها طوال
عمري ووحدتي... إنه العبث، أن يكون المصدر الوحيد
الذي لا أعرف غيره كمنهاج لحياتي هي الروايات
والكتب ، مجرد أوراق مصفوفة من خبرات الآخرين ،
الذين لا أعرف غيرهم وأخشى الخروج بعيدا عن
قوانينهم، أن تكون هي مصدر معرفتي وتعاملي مع
الآخرين، مسألة -أحيانا-تدفعني إلى الوقوع في
المشاكل إن لم أقع في مصائب ..

«سوف أترك العنان لقلبي هذه المرة أن يفعل ما يشاء ».

عنادي يتحدى وجودي محاولا طرد مخاوفي، أريد أن أشعل النار في ذاكرته، وقفت أمام خزانة ملابس أمي أختارما يناسبني أريد أن أكون صورة طبق الأصل منها، سأرتدي شالها الحريري المموج بدرجات الأزرق، ليتماشى مع البنطال الجينز والبلوزة الملونة بين الأبيض والأزرق بتموجات البحر. سأتعطر بعطرها عن عمد، أريد أن أشبه «راجية منصور » ، في كل لفتاتها وحركاتها وعطرها وملبسها، أريد أن أزيد من حيرته التي رأيتها في نظرة عينيه منذ اللحظة التي التقيته، سأجعله يندم على اليوم الذي رآني فيه .

لماذا يريد مقابلتي؟

سأضعه على حافة الجنون، سوف أقلد حركاتها ومشيتها وابتسامتها ونبرة صوتها، لن أجد أي صعوبة في انتحال شخصيتها فالجينات تُيسِّر كثيرا من مهمتي الصعبة، سأشعل ذكرياته من جديد، بكل ما أمتلك من حيل التشابه بيني وبينها، «راجية منصور » لن تختفي هذه المرة من حياته، سأجعله يراها ماثلة أمامه في صورتي، سأضعه في نفس الحيرة التي وضع أمي فيها من سنوات، وتركها تتخبط في الشك وإيجاد أعذار تناسبه، دون كلمة واحدة تشفي انزعاجها وقلقها .

لن أدع له فرصة شك واحدة تنفي أنني لست هي !

التقيته في أحد المقاهي المطلة على النيل، لو يعلم كم أحببت هذا النهر، وكم سيكون انتقامي منه على ضفافه، سأجعله يندم على مواعدتي.. ويكره نفسه لأنه عرفني، لن أرحم وحدته واحتياجه وشيخوخته، الظلام الذي تعيش فيه وحدتها لا يضاهي وحدته التي يرى فيها العالم من حوله .

كان جالسا، ينظر إلى النيل، سارحا في شيء ما لا أعرفه.. ولكني أتخيله، كأنه غارق في ذكريات قديمة، يبدو لي من بعيد بطلا من أبطال الروايات الكلاسيكية بل أكثر شبها بالفنان «فان جوخ » في لوحته الشهيرة التي رسمها لنفسه، وهو جالس على مقعده سارحا يدخن غليونه بشعره الرمادي، وسيجاره الكوبي الذي يمنحه روحا رومانسية، وهو ليس كذلك .

«فان جوخ » رجل عذبه الحُب، والألم هشّم روحه، و أسكره العشق، إلا أن أنثاه الغاوية لم تبال به، فقط تجاهلته، وأرادت التخلص منه فطلبت منه طلباً مستحيلاً.. أن يقطع أذنه لأجلها..!.. وفعل ! ، لكن «سليم علوان » لم يفعل، إنه اختارالطريق السهل بالهروب والاختفاء وراء الكتابة، بدلا من تلبية نداء حبيبته.. التي لم تطلب منه قطع أذنيه، لم يستمع لدقات قلبها، ولم ير العشق في عينيها، أغمض عينيه عن مشاعرها وتجاهل عواطفها التي رآها الجميع إلا هو .

في كل الأحوال هو متهم في نظري بالهجر والغدر لأنقي قلب عرفته .

ما هذه الثقة التي تتملكني نحو تصرفاته؟، هو ليس «فان جوخ » ، ولا يملك جنونه، و لم يقع في حبي بعد، إنه مجرد كاتب رأى فتاة تشبه بطلة روايته، يا لخيال الروايات الذي يكاد يدمر واقعي .

حينما التفت نحوي رأيت وجه رجل مألوف غير الذي وصفته في لوحة «فان جوخ » لذاته، رجل آخر يرتدي بنطال جينز وجاكت كاجول يميل إلى اللون الأبيض العاجي، وقميصا أزرق بخطوط خفيفة بلون السحاب في بداية الشتاء، اقترب مني مرحبا فارتعشت قبل أن يفسح لي المقعد الذي يجعله يراني بكامل ملامحي، كيف تسنى لي التفكير بعقلية منتقمة لحبيب هارب؟ !

اختلست نظرة خاطفة لملامحه، وجدت رجلا أنيقا بشكل لافت، عطره نفذ إلى روحي فأصابني بالدوارااللذيذ، كيف سأنتقم منه
يا لها من مهمة صعبة!، لابد أن أنفذ مخططي بإتقان رغم ضعفي أمام وجوده الفعلي، فلا ينبغي أن أتراجع، مهما أصابني من ضعف وأنا جالسة هكذا أمامه أتأمل ملامحه كرجل طالما حلمت به في يقظتي ومنامي وفي رواياتي.. لابد أن أنتقم منه بلا تردد، هذا من حطم أحلام أمي ذات يوم .

بادرته قبل أن يلحظ ارتباكي : ماهو الأمر العاجل الذي طلبتني من أجله؟

حدق مدققا في تفاصيل وجهي، كأنه يبحث عن شيء ضاع منه :

- ماذا تريدين مشروبا ساخنا أم تفضلين عصيرا مثلجا؟

- ليمون بالنعناع مرددة في سري «مشروب أمي المفضل ».

- نظر في عيني مبتسما: غريبة جدا هو نفس مشروبي المفضل .

قلت في سري: أعرف ولكني خشيت على سر أمي .

حاول أن يقرأ سريرتي بنظراته المخترقة، ولكني تجاوزتها، وبادلته بنظرات التحدي لأثير رجولته لفتاة متعطشة للحب مغرمة هامسة بصوت مسموع :

النيل ساحر في هذه المنطقة بين ضفتي جزيرة ذهب .

فاجأني بسؤال أدهشني: هل قرأت رواية «سأحبك للأبد » ؟

قلت بارتباك: أكيد طبعا، هل نسيت مناقشتي لها بالأمس !

- هل لاحظت وجه الشبه بينك وبين «ندى » بطلة الرواية؟

- رددت عليه بسؤال أكثر استخفافا: هل تحب الصراحة؟

قال باسما: لا أحد يكره الصراحة .

- أحسست وأنا أقرأ روايتك أن هناك شيئا ما يربطني ببطلتك، وبأنها تشبهني تماما وقريبة من روحي ودمي، لكني حدثت نفسي أن هذا يحدث كثيرا مع أبطال روايات قرأتها وأحببتها، وأن وجه التشابه بيني وبين بطلتك محض صدفة .

- لكنني أرى غير ذلك، البطلة التي كتبت عنها تشبه ملامحك تماما كأنها أنت .

قلت ساخرة: يخلق من الشبه أربعين.. فهل روايتك كما قيل في كل مكان أنها تجربة شخصية؟

- كل روائي له رؤى في مكونات شخصيات أبطاله، فبعضها يستمدها من خياله، وبعضها من حياته الواقعية، وغالبا ما تكون الأكثر تأثيرا في الرواية. أو الشخصية المحورية ما لها صدى في روح المؤلف، وإلا فإنها تفقد حيويتها وصدقها الفني .

كدت أطلب منه أن يحكي لي عن بطلته الحقيقية، لكني تراجعت، أردت أن أتحقق من حبه لأمي، أم أنه هيئ لها أنه يحبها .

قلت: ما زلت لا أفهمك! لماذا طلبت مقابلتي على وجه السرعة .

- أردت أن أتحقق من سؤال يدور في رأسي منذ أن التقيتك بالأمس؟

قلت وأنا أحاول كبت لهفتي: ما هو؟

- كم يكون مثيرا للدهشة والعجب أن يجسد المؤلف بطلة من خياله ثم يجدها أمامه تماما كما تخيلها .

أدركت أنه يكذب، وأنه كتب قصة حبه لأمي بحذافيرها، ويريد أن يوهمني بأن بطلة قصته من محض خياله، وإمعانا مني في محاصرته لينطق بالحقيقة التي يريد إخفاءها مستعينا بالتشابه بيني وبين بطلة روايته التي يدعي أنه تخيلها، سألته :

- ماذا وجدت بين صورة البطلة الحقيقية والمتخيلة؟

- وجدت حكاية قديمة اعتقدت أنها اندثرت وخبت، وأن بطلتها ليس لها وجود إلا في خيالي، والآن أراها ماثلة أمامي بكل ملامحها وعطرها ونبرة صوتها، مما يسوقني للجنون .

ما زال يعبث، وما زال يراوغ بعيدا عن الحقيقة، مدركة أنه يلعب بمشاعري وخيالي .

قلت: ما زلت لا أفهمك، هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

أخذ نفسا عميقا من سيجارته متأملا وجهي: هذا ليس تناسخا، ما أراه طبق الأصل من واقع عشته وظننت أنه مضى وانقضى، لكن تجسيدك لهذه الشخصية الحقيقية أوقعني في حيرة مع نفسي هل ما أراه حقيقة أم خيل لي؟، لافرق بينكما إلى حد مذهل تضعني في حيرة مرعبة .

قلت: إذا كان الأمر مرعبا إلى هذا الحد، فلماذا افترقتما وأنت تحمل لها كل هذا الحب؟ وهمست لنفسي «أخيرا اعترفت أن بطلتك موجودة بالفعل لا بالخيال ».

حاولت أن أتحدى صوته الداخلي، فسألته: هل خانتك؟

صرخ في وجهي: لم تخن، أنا الذي خذلتها، كنت أجبن من مواجهتها بالحقيقة .

وحينما استنكرت صراخه في وجهي .

اعتدل في جلسته واعتذر بشدة: لم تكن خائنة يوما .

لم أعد أشك في عشقه لوالدتي !

واستطرد بنبرة صوت هادئة : «راجية » لها طبيعة متسامحة، فيها طيبة وحنان لم أجده في حياتي، حتى حضن أمي لا أتذكره، فقد رحلت وأنا طفل لا أعي حنانها، نبرات صوتك وملامح وجهك الدقيقة، لمعة عينيك وبريقهما، أعادوني إلى زمن أفتقده، وأشتاق إليه .

رغم تأكدي من أن حبيبته كانت أمي بذكر اسمها بشكل عفوي أمامي، إلا أني قاطعته بتحَدٍّ وهمي بعدم اهتمامي بالحكاية: يعني أنا الصورة الشريرة من حبيبتك .

اعتذر للمرة الثانية محاولا الضغط على ظهر كفي الضاغط بشدة على كوب الليمون بالنعناع: أنتِ أكثر حدة وعصبية، هي لم تكن كذلك .

- ما هي حكايتك مع راجية؟

- كنا عايشين قصة حب مثل كل اثنين اتفقا على الارتباط بالزواج، كل واحد منا وجد نفسه في الآخر ...

لم أشأ مقاطعته،لكن صوتي الداخلي لم يتخل عني لحظة :

- هل لأنك وجدت نفسك معها تركتها تتخبط في الظنون وحدها!؟

- كنت مغتربا أعيش في بيت الطلبة، أما هي فكانت من عائلة ميسورة، أقنعني زميل غرفتي في سكن المغتربين، بأن قصص حب الطلبة مصيرها الفشل وخاصة إذا كان هناك فارق اجتماعي، وأن الكتابة لا تحب الشريك، بدل العذاب والفراق وقصص الحب المكررة المملة أخلص لحبك الحقيقي «الكتابة » ، لا تضيع وقتك في الحب، وإذا اشتقت للحب يا أخي اكتبه، والتحقت بالعمل في الجريدة التي يعمل فيها صديقي محررا تحت التمرين، ثم التحقت بالعمل في القسم الثقافي، تدرجت في هذه الجريدة إلى أن أصبحت رئيس قسم وبعد أن تخرجت من الكلية، تم تعييني في الجريدة فقد كان لي أسبقية التعيين بعد أن ثبتت جديتي و ...

قاطعته بعصبية: ماذا عن راجية؟

- بعد التخرج حاولت أن أتصل بها ولكنها لم تكن تجيب، هل لأن رسائلي لم تكن تصل إليها أم أنها أنهت كل علاقتها بي؟ ! عرفت بالصدفة أنها تزوجت، وتفرغت للحياة الزوجية، ولم تحقق شيئا من طموحاتها التي كانت تحلم بها ككاتبة .

قلت في سري: ممكن نحقق أحلامنا باستبدالها، وكنت أنا البديل يامغفل !

- أصبحت أعيش في عالم أكثر اتساعا، بدأت رواياتي تنتشر في الوسط الثقافي وعملي الصحفي سهل الأمرفي الوصول لأكبر قاعدة من القراء و ...

- هل اختفت راجية تماما من حياتك؟

- راجية لم تختف بدليل وجودها في روايتي الأخيرة .

قلبي الملتاع الذي يريد التراجع عما نويت أن أفعله، بمن خان أمي يكاد يدفعني أن أخبره بأنها لم تتخل عن طموحاتها، وإنما فقدان بصرها، أعجزها عن تحقيق حلمها، بأن تكون كاتبة. هل تقصد أنني أشبه راجية؟

أجاب بلا تردد: كأنك هي .

- ماذا فعلت حين فشلت في عثورك عليها؟ هل نسيتها؟ وعشت حياتك مثل كل قصص حب الجامعة الفاشلة .

- لم أنسها عشت أبحث عنها في نساء كثيرات .

- لا أفهمك، كيف كانت علاقتكما حميمية إلى هذا الحد، وقررت الافتراق وحدك حتى أنك لم تأخذ رأيها في هذا الأمر؟! ألم يساورك الظن بحجم العذاب الذي خلفته من ورائك، لقلب أخلص في حبك، دون أن تنتابك رجفة قلب، أو رعشة يد أحسستها يوما، هكذا قررت بمنتهى البساطة أن تغادر وتغدر دون إنذار أو أسباب واقعية؟

- في الحقيقة جبنت .

- هل راجية كانت عائقا لطموحاتك وإبداعك؟ !

- بالعكس كانت دائما تلهمني وتساعدني، لكن لم أكن مستعدا لبناء بيت وأسرة حينذاك. خشيت أن أعذبها معي فتفقد حلمها معي ويتحول هذا الحب الكبير إلى عذاب وتأنيب ضمير؟

- وما فعلته لا يدخل في دائرة الضمير في رأيك؟ لتأتي بعد كل هذه السنوات تبحث عن حبك القديم؟ هل هذا ظلم؟ أم أنانية؟!.. عفوا يبدو أنني انفعلت بما تقوله عن هذه المرأة .

- لم أبحث عن حبي القديم .. رؤيتك فجرت ذكرياتي، لك حق استنكار تصرفاتي ..

أنا رجل وحيد و ..

- ماذا عن عائلتك؟ أين ذهبت؟ هل غادرتها أيضا؟ !

- لم أغادر أحدا. زوجتي رحلت من عامين، وأولادي كل واحد مشغول في حياته .

- من أجل ذلك عدت تبحث عن ماضيك، وتفتش في أوراقك القديمة؟

- قلت لك أنتِ من فعلت بي ذلك، لم أبحث عن الماضي، الحكاية كانت طي النسيان، لولا ظهورك في حياتي في هذا التوقيت لما استيقظ الماضي بكل أحداثه .

وبدأ يفقد أعصابه ويثور.. ثم أخذ يهدأ محاولا تخفيف نبرة صوته :

لماذا لا تصدقيني؟! ثم هل راجية وكلتك لتدافعي عنها بعد كل هذه السنين؟ !

لم أعلق ولم يهزني كلامه ولم أتأثر بحالته.. حاولت إنهاء حوارنا قبل أن ينقلب إلى شجار،وخلاف لا طائل من ورائه. فأنا أريد أن أبقي عليه في حياتي.. رغم كل ذلك!! .. وقلت: لم يوكلني أحد، أعتذر فلديَّ موعد هام .

- إلى أين تذهبين؟

- سأذهب إلى المكان الذي ظهرت فيه لأول مرة في حياتك، عندي موعد مع مدير المكتبة ولابد من إعداد جلسة القراءة القادمة .

ولكنه أمسك بيدي ضاغطا على كفي بقوة مثلما فعل في أول مرة :

- أريدك أن تبقى معي .. أشعر بالخواء حينما تغادريني .

نظرت إليه وعيوني تحمل كل علامات الاستفهام في العالم، ولكنه بادرني هامسا: أريد أن أتزوجك يا «مي ».

- تتزوج بمن؟ !

- أتزوجك أنت .. إنني أشعر أن الله أرسلك لي في الوقت المناسب بعد كل هذه السنوات ليعوضني عن حب ضاع مني وأجده الآن أمامي ماثلا بكل تفاصيله .

فكرة طلبه للزواج مني أربكتني وأشعرتني بأنه طلب يحمل رغبة حسية، زلزلتني تلك الخاطرة... تماسكت بصعوبة بالغة... تحشرج صوتي.. ادعيت السعال، وأخرجت منديلا أجفف به فمي وأخفي اضطرابي .

قلت: أنا متزوجة ولدي طفلة لا أستطيع تركها بمفردها .

واصل حديثه: أعرف أنك آنسة وليس في حياتك أحد .

قلت برد فعل حاولت أن تكون بلا مبالاة : من الذي قال لك إني غير متزوجة؟

بحثت في كل تاريخك من أيام المدرسة إلى أن التحقت بالعمل في المكتبة كقارئة .

- هل عرفت شيئا عن ظروفي العائلية؟

- استعنت بكل من يعرفك لم أستثن أحدا ..أردت أن أعرف كل شيء عنك .

صرخت في وجه: أنت تبحث عن خصوصياتي؟! تنقب عني؟

لم يبال بصرختي ولا استهجاني لفضوله .

- أحببت أن أعرف إذا كنت متزوجة أو أنك مرتبطة بأحد، عرفت أن حياتك لا يوجد فيها أحد غير أمك الكفيفة التي تعيشين معها .

قلت بحزن كاد أن يكون استسلاما: هل عرفت من أكون؟ وعرفت من هي أمي؟

- عرفت أنك ابنة مخلصة ورائعة لأمك .

قلت له : يجب أن أعود لأمي فهي وحدها، ولا أريد أن أتأخر عليها أكثر .

- قال -مبتسما بعد كل ما بدا مني من استهجان-: تقصدين ابنتك .

قلت بنفس النبرة: لا فرق بين الاثنتين.. أمي هي ابنتي .

تركته وأنا في حالة ارتباك شديد، ما الذي يريده هذا الرجل مني؟ بعد أن اقتحم حياتنا هكذا شاهرا كل أسلحة الحصار العاطفي لتطويقي، هل لوعرف أنني ابنة حبيبته سوف يصر على الزواج مني، حتى لو أصر سأرفض، هذا هو الجنون بعينه .

لن يكون لهذا الرجل وجود في حياتي، إنني أكرهه من كل قلبي، ما الذي أتى به في حياتي بعد طول انتظاري لرجل أحبه ويحبني؟ هل أخدعه وأوقعه في حبي ثم

أتخلى عنه، أم أتركه يتعذب في حبي ثم أصطنع قصة خيانة أصدم بها مشاعره، بداخلي قلب يحبه وعقل يريد الانتقام منه. أريد أن أراه يتعذب، وأتمنى لو ألقى بنفسي بين ذراعيه، لا أعرف ما الذي أريده منه؟! لا أريد أن يفلت من يدي في كل الأحوال !.

ماذا فعلت بي الروايات؟ أوقعتني في حالة حيرة وقلق وحزن أعمق من حكاياتها.. ثم إن فكرة ارتباطه بي تبدو فكرة تحمل كل أنانية رجل يريد أن يتزوج شبيهة حبيبته ..

إنه يحلم !

لحظة الغروب أوشكت على الرحيل، يخيم على المكان لون أرجواني ممزوج بضوء الشمس الهارب، يتواري ببطء تاركا بين سعف النخيل ظلا يحرس ضفافه، مخلفا العذاب في قلبي الوحيد . ماذا فعلت في حياتي لأرى من أحبته أمي في الماضي ماثلا أمامي يطلب مني الزواج؟. ما يحدث لي يفوق قدرتي على التخيل والاحتمال ..

يارب امنحني قوة أتمالك بها نفسي ضد حب تمنيته ولكنه محرم عليّ معايشته .

لن أستمع لصوتي الداخلي، لن أتهاون في حق أمي، ولن أدع هذا الرجل يكسر قلب أمي مرة ثانية، مرة بالهجر

ومرة بحبه لي، يجب أن أخلعه من حياتي، إنه الكابوس الذي خرج من روايته ليحطم خيالي ويدمر حياتنا، سألقي بروايته من شرفة حجرتي، سوف أنسى أحداثها لن أترك ماضيا سخيفا يحطم حاضري الحائر لمجرد أني رأيت صورتي بين أحداث روايته بالصدفة .

رنين الهاتف لا يكف عن الصراخ، أرى صورته تومض على شاشته فالتقطت صوته: قال بلهفة، طمنيني عليك حال وصولك للبيت، أجبت في سكون: حاضر .

حياتي أصبحت أشبه بالروايات التي أقرؤها، أحب حبيب أمي ويكتب رواية عن أمي التي أشببها، ما لهذا الواقع المأساوي التراجيدي في واقع لا يحتمل تراجيديا شكسبيرية ترسم خطاه في حكايات أغرب من الخيال .

لو أخبرني أحد يوما بأنني سأحب رجلا تعدى الخامسة والستين من عمره. لم أكن لأصدقه! ولكني أحببته .

ما كل هذه الهشاشة التي أصابتني وجعلتني لا أقوى على اتخاذ أي قرار ضده، حقيقي أنا مغرمة، لكن لا ينبغي أن يأخذني الغرام إلى طريق محفوف بالعذاب والوجع، إنني في بداية الطريق وما زال الوقت أمامي قبل أن أصل للبيت، لا يصح أن تراني أمي على هذه الحالة،لا بد وأن تجدني مشرقة مقبلة عليها كعادتي بعد عودتي إليها .

حقيقي أنني أغرمت وأحببت رجلا ليس لي، وهذا قدر ليس لي يد فيه، لكني أمتلك عقلا يمكن أن أحتمي فيه، أما عواطفي ومشاعري التي أخذتني بعيدا عن المنطق.. فلا مكان لها عندي .

لغة القلب ليست منطقية في كل الأوقات .

لابد أن أُبقي على أمي وأحافظ عليها، هي كل ما لديّ في هذا العالم المتسع البارد، ليس لديّ غيرها، هي كل حياتي ضعفي وقوتي، ملاذي وجنوني وهروبي منها إليها في ليالي الوحدة القاسية، التي تلفني كل ليلة بحضنها، الحضن الذي لم يمل يوما من لهفتي وارتمائي فيه، رأسي تكاد تنفصل عن جسدي من شدة الصداع، الرجل الذي حلمت به في منامي يصير محرما، أشعر بالخوف والقلق من المجهول لا أدري على أي وجه يمكن أن يكون غدي.. لا يمكن أن أخذل القلب الذي استمد منه قوتي ووجودي من صبرها وإرداتها وعزيمتها التي هزمت بهما العجز، هي التي حولت حياتي إلى نور لا ينطفئ بالحكايات وعشق الروايات ودفء لم أجده إلا في حضها الذي لم أر غيره فكيف لي أن أزيد من ظلامها ظلاما جديدا يدمر الجزء الباقي من ذكرياتها المضيئة في خيالها..بل إنه حتما يحطم حياتها .

لم أحب في حياتي أكثر من حبي لعالم الروايات، ولا يجب أن أخرج من بين دفتيها من أجل أحد حتى لو كان الحبيب المنتظر، فأنا لست الأميرة النائمة التي

حلمتُ أن أكونها يوما ولا هو الأمير المنتظر الذي حلمت به، لن أستمع لأي نداءات للحب غير نداء أمي، ماذا لوكانت ملامحي تشبه ملامح أبي هل كان أحبني؟، «سليم » أحب ملامحي لأني أشبه حبيبته لا أكثر، مهما أنكر أو ادّعى أو كذب أو أغفل، أنا الماضي بالنسبة له الذي جسدته فيه بحضوري بعد كل هذه السنوات في جلسة قراءة لا أكثر، أنا وحدي من تعلم الحكاية الكاملة، ولا أحد غيري يتعذب مثلي.لا هو ولا هي .

لست تعيسة بحياتي، يكفي أنني أنعم برضا أمي .

يصرخ صوتي الخفي في وجهي: ماذا عن رضا قلبك؟ هل سيُترك للضياع أم أنك تنوين قتل مشاعرك نحوه ونسيانه للأبد .

أجيب على صوتي: يا لتعاستي من أبدية الحب وأبدية النسيان!، إنها كلمات وهمية ننسجها حول فشلنا حين لا نقوى على اتخاذ القرار ضد من نحبهم .

سأترك لقلبي الاختيار .

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف مساء حينما أدرت مفتاح بيتنا وسمعت خطوات أمي تتجه زحفا مضطربا نحو الباب، واستقبلتني وهي ترتعش: أين كنت؟ لأول مرة تخرجين من البيت دون أن تخبريني .

- اتصلت بي إحدى زميلاتي من أيام الجامعة. وكان لديها مشكلة عاجلة، ولمحتك في حالة استرخاء على فراشك ظننتك نائمة فلم أرد إزعاجك أو أن أسبب لك قلقا .

- ولكني قلقت، لا تفعلي بي ذلك مرة ثانية دون أن تخبريني، لا تدعيني أقلق عليك أكثر من ذلك .

لأول مرة أكذب على أمي، خوفا عليها، احتضنتها، وأوصلتها إلى سريرها، ووعدتها بألا أتركها تبحث عني ولا تجدني .

لا أعرف شعور الأعمى حينما يتخبط في ظلام القلق على من يحب، ولا يستطيع أن يرى ملامحه، ولا كيف يسأل عن غيابه، لن أجعل أمي تقلق عليَّ ثانية، لن أتركها نهبا لخيالات سوداء غير حقيقية، ما صنعته لأمي من حكايات وروايات جعلتها لا ترى الشكل الحقيقي لملامح الوجه إذا كانت مرتاحة أو قلقة .

في هذه الليلة حمدت الله على أنها لا تستطيع رؤيتي، حتى لا ترى الصراع الواضح على وجهي، حملت نبرة صوتي مسئولية الطمأنينة الزائفة لسمع أمي التي يصعب عليها لمسها إلا بقلبها، ساعدتها في الاستلقاء على فراشها كطفلة اطمأنّت لوجود أمها بجوارها، قبلتها على جبينها وتمنيت لها أحلاما سعيدة، ولا أدري ما إذا كانت تستطيع أن تحلم مثلي، أم أنها لا تستطيع ذلك .

13

سأترك قلبي يفعل ما يشاء .

جاء في موعده المعتاد بين لحظة اليقظة والمنام متسللا من شرفتي الجانبية، مرتديا معطفا ثقيلا وغطاء للرأس يخفي نصف وجهه والنصف الآخر ملتحفا بكوفيته الصوفية التي تطل منها عيناه، وهما تبحثان عنِّي في غرفتي المظلمة إلا من ضوء القمر الذي تسرب من بين دَفَّتَي النافذة المواربة، استيقظت على قفزته داخل الغرفة مرتعشة كطفلة في انتظارحضن دافئ تحتمي فيه من البرد، لم يجلس على مقعده الخاص أمام سريري، لم يمهلني فرصة الحديث إليه أوالإنصات، وجدته يقترب من أنفاسي المتلاحقة، يحتضن جسدي المضطرب، يعبث في شعري ملامسا بشفتيه مؤخرة عنقي منزلقا بهما إلى كتفي، فازداد جسدي ارتعاشا،أغمضت عيني بنشوة حالمة، أيقظني هامسا في أذني: أحبك، لم أحب شبيهتك، أنت الحبيبة المقصودة، الحبيبة التي بحثت عنها في روايتي «سأحبك للأبد ».. انتفضت من رقدتي وجسدي يرتعش كطفل وليد لم تلمسه يد أمه بعد .

سألته بتلعثم : ماذا تقول؟ .. يكرر على سمعي: أنت حبيبتي الموعودة .

همست من بين شفتيّ المتعانقتين: ماذا عن راجية منصور؟

قال: لا أعرف أحدا بهذا الاسم! وكتم أنفاسي بقبلة طويلة .

حاولت أن أفلت من بين شفتيه :

قلت لي إنك أحببت فيّ ملامحها وعطرها ومشيتها وحركاتها .

كتم أنفاسي هذه المرة بقبلة غبت فيها عن الوجود وما زال طنين صوته يأتي إلى مسمعي ضعيفا هامسا كصدى صوت قادم من بعيد وجسدانا ملتصقان: لم أحك شيئا عن راجية منصور ولا أعرف أحدا بهذا الاسم، لماذا لا تصدقيني، كنت أحكي عنك أنت، كنت أحكي عنك أنت، كنت أحكي عنك أنت .

لم أحب أحدا غيرك، لم أحب أحدا غيرك ، لم أحب أحدا غيرك ..

أنت أميرتي التي أبحث عنها. أنت أميرتي التي أبحث عنها ..

لم أستفق من حالتي إلا على صوت دقات رقيقة كحبات المطر، تدق باب غرفتي من يد أمي وهي تتحسس

وجودي المتأخر لموعد استيقاظي لتناول الإفطار كعادتنا معا .

رددت عليها بوهن: حاضر، أنا صحوت.وفي الواقع ما زلت أحلم بآثار ليلة الأمس مشطت شعري أمام مرآتي، تحسست آثار قبلات «سليم » على وجنتي، توهمت أن أمي سوف تراها، وأنها ستكتشف سري، ماذا سأقول لها حينما تسألني عنه؟

أمي لن ترى شيئا ولن أحكي لها عن أحلامي، ولن أروي شيئا عن هذا الرجل الذي سرق النوم وخلط الخيال بالواقع، لن أروي ما كان منه؟ لن أحكي شيئا لها، خوفا على صغيرتي .

سأترك قلبي يفعل ما يشاء .

كرهت عقلي الذي رسم حياتي بالورقة والقلم وحرمني من الوقوع طول الوقت في الخطيئة مثل كل الناس .

أنا لست ملاكا، ولا شيطانا، أنا فتاة عذراء لم يمسسها رجل من قبل، تريد أن تعيش وتمارس الحب، تتذوق طعمه، أمي أحبت «سليم علوان » ، ومارست الجنس بجسدها مع أبي يعني ذاقت الحالتين، أما أنا محرومة من الخيال والواقع. جسدي المحروم وروحي الهائمة تطوف حول أبطال الروايات الوهميين كل ليلة ثم تعود إلى الفراش مهزومة. وحينما تجسد لي رجل الأحلام

في صورة الحبيب المنتظر، جاء بصورة أفظع من خيال الروايات،روحي وجسدي يحتاجان إليه وعقلي يقف لهما حائلا بالمرصاد .

أحكمت حزام روب نومي على خصري بشدة حتى لا تكتشف أمي سري مع حبيبها !

- نمت كويس؟

- النوم لم يَخْلُ من الكوابيس، لكنها لم تكن مفزعة. ماذا عنك أنت؟ نمت كويس؟

- نوم متقطع بين أحلام وهلاوس ووجوه ليست واضحة وأماكن ضبابية، ما كنت أراه من سنوات ضعف في خيالي، الذكريات تشيخ مثل أصحابها، وضحكت أمي قائلة: طمنيني عليك. حاولت أن أغيرمجري الحديث المؤلم عن الأحلام والكوابيس: عندي جلسة قراءة غدا ومحتارة في اختيار فكرة جديدة أو كتاب، ماذا تقترحين من كتب؟

- اختاري موضوعا محفزا، اجعلي من هذه اللقاءات مناسبات للمتعة وليست مجرد قراءات جافة، القراءة تمنحنا متعة لا يعرفها
إلا من فقد القدرة على الاستمتاع برؤية الحروف والكلمات وهي تتراص وتتعانق فوق سطور في رواية أو قصة أو قصيدة .

ساد بيننا صمت خيم على جدران المكان أشعرني بالاختناق في لحظة، ولكني بادرتها: أفكر في رواية «نصف حياة » للروائي ف.س. نا يبول .

التفتت لي بانتباه : لم أسمع عن هذه الرواية من قبل ! ما أهمية اختيارك لها؟

- ثمة شيء في صدري أريد أن أتخلص منه بصوت عال؟

- لا يجوز لنا التخلص من متاعبنا أو مخاوفنا بإلقائها في وجه الآخرين، حتى لو كان ضرورة في عملنا، لا تخلطي بين همومك ومشاكلك ومسئوليتك في الاختيار الحر لموضوعات قراءاتك .
لا يصح أن نصدر مشاكلنا أو همومنا إلى أحد مهما كانت الأسباب .

قلت بحماس: القراءة كالكتابة تخلصنا من متاعبنا، قراءتي بصوت مسموع، يسمعه الجميع معي في نفس الوقت، يخلصني من مخاوفي، إنني أرى ردود أفعال المتلقين، تماما مثل ممثل المسرح الذي يحصد إعجاب الجمهور لحظة الأداء .

- دون الدخول في فلسفات غريبة وغيرمنطقية، ليست كل الروايات تصلح للقراءة بصوت مرتفع " إلا لأمثالي ممن يعانون من عدم القدرة على القراءة إلا بطريقة

برايل، عموما دعينا من هذه الحكاية، ماذا عن رواية «نصف الحياة » ؟

- حكاية قريبة من علاقتي بأبي وخصوصا مقطع أثار وجداني وفجر تساؤلا لم أجد له إجابة، ماذا لو لم يمت أبي؟

لم تستطع أمي إخفاء دهشتها: ما الذي يدعوك لهذه الأمنية؟ وهذا الاختيار؟

لم أستطع أن أفصح لها عن مخاوفي، بأن وجود أبي ربما أتاح لي فرصة الارتباط بمن أحببت؟ أو عوضني وجوده رغم قسوته عن هذا الحب؟ !

أشعر بالارتباك ..

- أين رحت؟ ماذا قال صاحب «نصف الحياة » ؟

- الرواية تحكي علاقة أب قاسٍ بابنه الذي لا يشعر إلا بقسوته عليه طول الوقت وحينما وقعت له مشكلة لم يجد أمامه غير أبيه ليحلها، وأنا أحب أن أقرأ هذه الرواية بصوت مسموع ليسمعه الجميع معي .

- ما علاقة هذه الرواية بعلاقتك بأبيك؟

- لا توجد علاقة مباشرة، لم أحمل لأبي أية ضغينة، لكن علاقتي معه لم تكن على ما يرام، دوما كان يشوبها الخوف من جانبي، والأوامر من جانبه ولم يسمعني

يوما ولم أر ملامح وجهه من شدة خوفي من تعسفه لنا
.

صمتت قليلا متأملة لصوتي: ماذا في الرواية؟

قال بطل الرواية «الابن »: «أيامي مع أبي معدودات. لم نكن أبدا أصدقاء ولم يسع أي منا إلى ذلك. على أي حال بثُ أعتقد أن أي أب في نظر أبنائه هو شيء زائد عن الحد. طبعا إلى أن يموت.تعود هذه الذكرى إلى زمن لشد ما يحزنني أنه يبدو الآن مغرقا في القدم.لا أعلم كيف ورطت نفسي في ما ورطت أبي فيه.قضية سياسية غريبة وغير مفهومة جرت أقدامنا إلى الفصل من الكلية. كان على أبي والحال كذلك أن يتدخل. لم أحسب أن بإمكانه أن يغير من الأمر شيئا. لكن الأمور جرت بشكل جيد جدا لم أتوقعه .

كل ما أذكره عن هذا اليوم تفاصيل صغيرة غير مكتملة. أكثر ما يميزه كان برودة الطقس بشكل غير عادي. وأن أبي الذي عودنا على قسوته وحدة مزاجه كان رائقا جدا وأحن مايكون.. بدا متفهما لطبيعة المشكلة التي لم أفهمها أنا إلى الآن. كان ذلك منذ أكثر من ثماني سنوات. غريب هذا الزمن..وغريبة هذه الحياة.. كل ما كنت أفعله هو محاولة المرور من هذه الأوقات العصيبة إلى أقرب بر أمان. أن أعبر بأبي هذا الموقف المحرج. عاقدا العزم على ألا يتكرر كل هذا الهراء أبدا.. استقبلته من أول الشارع ثم تتلاشى الذكرى. بعد ذلك أراه يعبر

يوما ولم أر ملامح وجهه من شدة خوفي من تعسفه لنا
.

صمتت قليلا متأملة لصوتي: ماذا في الرواية؟

قال بطل الرواية «الابن »: «أيامي مع أبي معدودات. لم نكن أبدا أصدقاء ولم يسع أي منا إلى ذلك. على أي حال بثُّ أعتقد أن أي أب في نظر أبنائه هو شيء زائد عن الحد. طبعا إلى أن يموت.تعود هذه الذكرى إلى زمن لشد ما يحزنني أنه يبدو الآن مغرقا في القدم.لا أعلم كيف ورطت نفسي في ما ورطت أبي فيه.قضية سياسية غريبة وغير مفهومة جرت أقدامنا إلى الفصل من الكلية. كان على أبي والحال كذلك أن يتدخل. لم أحسب أن بإمكانه أن يغير من الأمر شيئا. لكن الأمور جرت بشكل جيد جدا لم أتوقعه .

كل ما أذكره عن هذا اليوم تفاصيل صغيرة غير مكتملة. أكثر ما يميزه كان برودة الطقس بشكل غير عادي. وأن أبي الذي عودنا على قسوته وحدة مزاجه كان رائقا جدا وأحن مايكون.. بدا متفهما لطبيعة المشكلة التي لم أفهمها أنا إلى الآن. كان ذلك منذ أكثر من ثماني سنوات. غريب هذا الزمن..وغريبة هذه الحياة.. كل ما كنت أفعله هو محاولة المرور من هذه الأوقات العصيبة إلى أقرب بر أمان. أن أعبر بأبي هذا الموقف المحرج. عاقدا العزم على ألا يتكرر كل هذا الهراء أبدا.. استقبلته من أول الشارع ثم تتلاشى الذكرى. بعد ذلك أراه يعبر

معي من باب الكلية بابتسامة غريبة وكأنما هو من أبطال زمن قديم سقط فجأة في زمن الأقزام تطلع حوله بنظرة شفقة ثم التفت إلى التفاتته الخفيفة .

قال ممازحا: الآن عرفت السر. ما عاد الأمر غريبا. أنت ليس لديك حب هنا. ففضلا عن وجودك في نصف كلية لديك هنا أنصاف فتيات .

فابتسمت وقلت: لدي هنا نصف حياة يا أبي ».

التفتت أمي نحو صوتي وقالت: هل تشعرين أنك تعيشين نصف حياة؟

لم أقصد هذا، في لحظات كثيرة تمنيت أن يكون أبي حيًا موجودا رغم قسوته، أحببت أن ألفت نظر القراء إلى أهمية وجود الأب في الحياة، حتى لو كان قاسيا لا يهتم بمشاكل أولاده أو تفاصيل حياتهم اليومية .

قاطعتني أمي بحزن: لكن أنا فعلت كل ذلك معك؟ ألم يكفك اهتمامي ورعايتي لك طول عمري .

- اهتمامك يحملني مسئولية إسعادك يعني حياتي كلها وليس نصفها. واختنق صوتي بالبكاء فقمت بتقبيل يدها وقبلتني هي بعدم ارتياح .

نهضت من مكاني ووعدتها بأنني سأختار عملا روائيا آخر غير هذه الرواية .

لكن صوتها جاءني من آخر الغرفة: افعلي ما تريدين .

دق جرس هاتفي فإذا بصورة سليم علوان تومض على شاشته، ترددت في الرد عليه للحظة، ثم رفعت الهاتف على أذني وضغطت عليه حتى لايصل صوته لأمي .

جاءني صوته يمتلئ بمشاعر فياضة، ما الذي يحدث لنا حينما نتحدث مع من نحبهم تتغير نبرة أصواتنا وتصبح أكثر نعومة عما هي عليه في حديثنا العادي .

قال لي: أريد أن أراك ..

قاطعته هامسة: أين ومتى؟

- في نفس المكان .

- لا أستطيع مقابلتك الآن، لدي جلسة قراءة في المكتبة الساعة السابعة، يمكن أن نلتقي بعدها إذا كان يناسبك؟

اتفقنا، سأنتظرك في سيارتي بعد انتهاء الندوة .

- لا أريد أن أتأخرعن ابنتي .

جاءتني ضحكته مجلجلة عبرالهاتف أشعرتني بالهزيمة أمام نفسي، فأغلقت هاتفي بكل ما أملك من غيظ لضعف إرادتي، أخجل من نفسي أمام قوة إرادة أمي التي اتخذت قرارها من أربعين عاما وفشلت أنا فيه، رغم قناعتي الكاملة بأن علاقتنا لن تنتهي بالزواج أو

بالارتباط كما نبغي، إلا أنني لا أستطيع رده أو إيقافه، لا أعرف لماذا أشعر بكل هذا الضعف معه، وتراجعي في لحظة عن كل القرارات التي اتخذتها ضده في غيابه . مجرد سماع صوته تغير حالي في لحظة وانقلب مزاجي في ثانية، وانتابتني تلك الفرحة الخفية كطفلة حصلت على قطعة شيكولاته في غياب أمها .

وقفت في منتصف حجرتي مشتتة الفكر، ممزقة الروح، ماذا أفعل؟ أنا أريده، ولا أقوى على جرح أمي أو تشويه ذكرياتها المتبقية لها من حياتها المبصرة .

إنني على يقين من أن هذا الرجل لا يصلح لي.. ومع ذلك أنجذب نحوه كالمغناطيس كل يوم أكثر.. لابد من إغلاق الباب في وجهه، حتى يمكنني الحفاظ على حياتي آمنة في حضن أمي، وفي أداء عملي الذي أحبه .

لم أستطع التركيز في جلسة الليلة.. حاولت طرد هواجسي بصعوبة، نهضت من مكاني أنفض آثار مكالمته باحثة عن عذر لعدم مقابلته، ولكني غرقت في تصفح الكتب للبحث عن كتاب يتناسب مع حلقة القراءة التالية. فالوقت يلاحقني حتى صار ضيقا، لا يحتمل التفريط في ساعاته القليلة المتبقة .

سأدع الظروف ترسم ما سيأتي في المساء .

وقع نظري على كتاب «ألوان أخرى » «لأورهان باموك » ، كنت قد قرأته منذ فترة بعيدة وأعجبني أسلوبه في طرح أحاسيسه وأفكاره اليومية بهذه التلقائية والبساطة على عكس ثرثرة «أليف شافاق » القادمة من نفس موطنه في تركيا، ما أعجبني لديها التقاطها للأحاسيس والمنولوج الداخلي وتعدد أصوات أبطالها، ذلك الصدى الذي أعيش فيه حياتي حينما أكون بمفردي وكثيرا ما أكون كذلك حتى أصبح صدى صوتي صديقي الخفي الذي يحاورني ويختلف معي نتفق ونتشاجر وفي نهاية المعركة يربت على كتفي ويشعرني بصداقته الحميمة في أوقات وحدتي حينما يستدعي لي حبيبا كل ليلة في غرفتي المغلقة، فهو كاتم لأسراري، وكثيرا ما أراوغه هاربة حينما يلح عليّ بأفعال يرفضها العقل ويهواها القلب مثلما يفعل بي الآن من مطارحة «سليم » الغرام ولا أطاوعه .

بداخلي امرأة مجنونة بالقراءة، مفعمة بالعناد، موعودة باختيار العذاب، تضع حياتها بين دفتي كتاب مستسلمة لأقدار أبطاله، مما يمنحها حرية أن تغلق الكتاب أو تستمر في قراءته للنهاية، بمرور الوقت أيقنت أن القراءة علاج لي من مشاكل كثيرة قد تعصف بي أو تضعني في طريق مجهول لا أعرف نهايته مثل حكايتي مع الرجل الذي أحبته أمي في شبابها.. وظهر في حياتي فجأة، واستوطن روحي من أول نظرة، بالتأكيد لست الوحيدة التي وقعت في غرامه من أول نظرة،

هناك من سبقتني في حبه، ولماذا أذهب بعيدا؟ أمي نفسها أحبته، أسأل نفسي ما سر جاذبية هذا الرجل؟ كيف استطاع أن يخرجني من عالمي ببساطة هكذا؟ وينتزعني بهذه القوة من عالمي الساحر بالأبطال والمؤلفين والحكايات والأساطير، إلى واقع لا أعرف مصيري فيه، ما الذي جعله بكل هذا السحر الأخاذ، هل هو بالفعل يستحق كل هذا الانجذاب أم أنه الحرمان والفقد، وغموض قصته مع أمي، هل جنون القراء به جعلني أنجذب إليه أم هو رجل الأحلام الذي انتظرته بالفعل من خلال الروايات؟ ماذا فعلت بي قراءة الروايات؟ هل تسببت في تعاستي أم أنا التي اخترتها سكنا غير مناسب، ما في الواقع تعدى خيال الروايات، أم هي ما قال أبي: إنها مضيعة للوقت .

14

أنا لست أمي، ولو كانت هي أنا ما فعلتُ ما فعلتْ

خضعت إلى نظرية النسيان القهري ؛ كعملية جراحية عاجلة للإنقاذ السريع من دوامة الرمال المتحركة؛ والتمزق النفسي الذي استطاع أن يحفر طريقا عميقا داخل روحي؛جعلني أخفي عن أمي أشياء وأفعالا لولاه ما كانت.. لو كانت هناك حديقة في أحلامك لم ترها أبدا في الحياة، ربما لأنها في الجانب الآخر من جدار مرتفع فإن أفضل طريقة لتخيل تلك الحديقة غير المرئية هي أن تروي قصصا تتناول آمالك ومخاوفك " وهذا ما قررت فعله، لقد أرهقتني الحياة التي وجدتها بين الروايات والكتب .لا أريد أن أعيش تجاربي من خلال تجارب الآخرين من واقع مؤلفاتهم أو من صنع خيالهم، إن ما أعيشه أصعب من تلك القصص التي امتلأ بها خيالي على مدى عمري، يكاد أن يقتلني الأسى من الرواية الواقعية : كيف تواجه البطلة أمها الكفيفة التي لا تملك غير ذكريات حب قديم عاشت له سنوات طويلة؛ تتلمس ذكراه من أوراق تحمل مشاعرها كجنين لن يري الحياة ، كيف أجرؤ على تدمير ماضيها المضيء في خيالها، الماضي الذي لم يتبق لها فيه غير قصتها معه .

الروايات التي قرأتها حول العمي لم تجب على أسئلتي في رواية عمري؟ لم تجب على سؤال كيف نرى ذاكرة الأعمى؟ وما الذي تخفي وراء فقدانه للبصر من صور ووجوه وملامح وأماكن، حتى «سارماجو » في روايته « العمى » جعل من العمى وباء يصيب ويجتاح مدينة بأكملها ماعدا امرأة واحدة هي التي تقودهم لحياة جديدة إلى أن ينحصر الوباء، لم يتعرض لفكرة الذاكرة، ارتكزت فكرته الفانتازية على إسقاطات قمعية وظلم وقهر المجتمع ككل .

كيف أستطيع الحفاظ على ذاكرة أمي وحمايتها من التشوه والتلف لوعلمت أن حبيبها الأول يعشق ابنتها، ليس لسبب إلا لأنني أشبهها وهذا الأمر يجعلني متهمة بالكذب والخداع عليها مدى الحياة في نظري .

لا حياة مع حبيب يجهل من أكون؟. أوقعت نفسي في عذاب لا حل له غيرالنسيان.لا أستطيع قتل أمي مرة ثانية بفعل يدي ؛ اعترافي لها بأنني أعيش قصة حب انتظرتها لي طوال عمرها ، الحب الذي يكلل فرحتها بالزواج وإنجاب الحفيد ، كيف أخبرها أنني وقعت في حب حبيبها؟ هل أنتقم منه وأفجر في وجه قنبلة الاعتراف بمن أكون؟ أم أتخلى عنه بكذبة تقتله في هذا العمر؟ أم أغلق الباب في وجهه دون تفسير أم أتركه يغرق في الحيرة مثلما فعل مع أمي .

لا أصدق ما أفكر فيه !

قلبي لا يطاوعني على الانتقام ، ولا على الابتعاد. أنا لست أمي، ولو كانت هي أنا ما فعلت ما فعلت .

ماذا فعلت «راجية منصور » حيال «سليم علوان » ؟ تناست الغدر والخيانة التي تركت في قلبها غصة لم يستطع الزواج أن يزيلها، بل زادها قسوة بفقدانها للبصر، واحتمال شقاء قلبها من زوج زير نساء، وعذاب ظلمة تألمت فيه وحدها .

أنظر إلى حياة أمي تلك المرأة الصبورة التي ما زالت تحتفظ بجمالها رغم اقتراب عمرها من الخامسة والستين .

اهتمت بنفسها حافظت على جمالها، لم تعرف اليأس لأنها لم تعد ترى ملامح وجهها، وما بداخلها ما زال بكرا، لم تهمل مظهرها، بل على العكس كانت دوما تتابع أخبار الموضة من الإذاعة، وتطلب مني اختيار ما يناسبها لتبدو أنيقة وبسيطة في تألق لم تره في مرآتها، ولكن الآخرين يرونه، بدت دوما امرأة مثقفة، أنيقة، تميل للمرح، لم أذكر يوما أنها تذمرت أو غضبت من شيءلأنها لم تتمكن من إدراكه أو رؤيته .

ماذا جرى لي؟ ماذا أصابني؟ هل صرت محللة نفسية لحياة الآخرين؟

لكنهم ليسوا آخرين إنهم أمي وأبي وحبيب أمي، الحبيب الذي حمّلته حبي، وحول حياتي الهادئة إلى صخب، وجعلني لا أميز بين ساعات يقظتي وأوقات منامي .

الحياة لا تسير على وتيرة العواطف والمشاعر وحدها، هناك وجوه أخرى في الحياة يمكن أن نهتم بها، نحبها، نكرهها، أشياء تجعلنا نتفاعل مع الآخرين، العزلة لم نحصد منها غير تكثيف المشاعر سواء بالحزن أو الفرح، العزلة ليست مسرحا صحيا للحياة المتوازنة دوما، إنها تصلح للتفكير أو لتغيير واقع، لكنها أبدا لا تصلح أن تكون حياة طبيعية كاملة .

لا مفر من العودة إلى عالم الكتب، دنياي التي فتحتْ عيني عليها.. عندما تسخر بنا الحياة تجعلنا كعرائس الماريونيت على مسرحها يشاهدنا الناس كمسوخ كافكاوية، ولكن يستحيل أن يستمر الوضع في مثل حالتي الواعية هكذا، لم تخبرني الحياة بمعاركها الواقعية، ولكن الروايات فعلت .

الساعة اقتربت من الخامسة عصرا ولابد من تجهيز حالي لجلسة القراءة المنتظرة، لن أرتدي شيئا من ملابس أمي ولن أتعطر بعطرها سأذهب إليه اليوم بنفسي وليس على صورتها التي ألهبت ذكرياته، انتفت أسبابي الخاصة للتلاعب بمشاعره وخياله بعد ما وقعت في مصيدة حبه رغم كل القرارات التي اتخذتها بيني

وبين نفسي، قد يستطيع أن يري شكلي لكن لا يستطيع أن يرى ما في قلبي .

سأترك للقدر أن يفعل بي ما يشاء .

الطريق أكثر ازدحاما مما تخيلت، السيارات تزاحم الباصات والتكاتك تشارك في فوضى مرورية ليس لها مثيل، سيارات من كل الاتجاهات في معركة لا تنتهي بسبب الأنانية المفرطة من كل سائق يريد الطريق لنفسه، مما لا يتيح لأحد أن يصل في موعده، الساعة قاربت على السابعة وأنا ما زلت في منتصف الطريق، وتأخيري ينعكس على موعدي مع سليم، ما الذي دهاني هل سأذهب إليه أم أعتذر له، ما زلت أقف في منتصف الطريق بين ما أريد ومايحدث لي بالفعل، بعد طول انتظار تحرك كوم السيارات المتراكم على الطريق، وبدأ مبنى المكتبة يلوح لي بلونه الأبيض .

اقتربت من المكتبة قبل موعدي بخمس دقائق، أسرعت الخطى نحو القاعة المخصصة لجلسة القراءة، كانت المقاعد الشاغرة أكثر من المشغولة التي لم يتعد فيها الجالسون عشرة أفراد، نصفهم من الشباب الصغير، ونصفهم الآخر تعدى الخمسين، وهي نسبة متعادلة كالحياة، اعتدلت في جلستي بعد أن ألقيت التحية على جمهور الحضور، وأعلنت عن موضوع جلستنا الليلة سوف يكون مع الروائي الكبير «يحيى حقي » في روايته «قنديل أم هاشم » لا أدري لماذا اخترت هذه

الرواية من بين الروايات التي تصارعت في رأسي للقراءة، ربما عقلي الباطن هو الذي اختارها لأن بطلتها أصيبت بالعمى نتيجة الجهل الذي كان سائدا حينذاك اعتقادا من أن زيت قنديل أم هاشم سوف يرد لها إبصارها !

ما كدت أنطق عنوان الرواية حتى لمحت علامات الارتياح على جمهور الحاضرين من الكبار في السن وعلامات الدهشة من جمهور الشباب الصغير، تدراكت بسرعة رد الفعل من مجرد ذكر اسم المؤلف، اخترت الكاتب «يحيى حقي » اليوم لأنه واحد من الذين طوروا القصة الحديثة، وسيكون بداية لقراءة الروايات الجديدة بالتوالي، وأقترح أن يكون في نهاية كل جلسة، ترشيح للعمل الذي ترغبون في مناقشته في الأسبوع التالي أو ما يتفق عليه الأغلبية .

توالى الحضور أفرادا وجماعات إلى أن امتلأ نصف القاعة، وبدأت الحكي ثم جاءت المناقشات... الطريف أن أغلب الجمهور كان من صغار السن، وأحسست بمسئوليتي عن أهمية الثقافة للشباب، وهذا الإحساس جعلني أشعر بقيمة ما أقدمه، وبأن هناك هدفا جديدا بدأ ينمو في حياتي، انتهت الجلسة بملاحقة الشباب لي لباب سيارتي، وأنا أتلفت من حولي أبحث عن «سليم ».

لمحت سيارة بي أم دبليو تقلب عاكسات الضوء فاتجهت نحوها، وما لبثت أن اقتربت منها حتى تأكد لي

أنها سيارته، كان جالسا في مقعد القيادة، يلوح بيده لي من نافذتها منحنيا بجسده كي أراه، أوقفت سيارتي بجانب سيارته، جلست بجواره في لحظة ، فعلت ذلك بشكل تلقائي دون تفكير ، وجدت نفسي بجانبه ، ورائحة عطره تنفذ في أعماقي، أخذت نفسا عميقا وخشيت أن يتحقق الحلم في سيارته .

أفقت بسرعة: لن أستطيع المكوث معك لأكثر من نصف ساعة، لأنني لن أستطيع التأخرعن أمي .

هز رأسه قائلا: حاضر ياستي .

ثم استطرد: كيف كانت ندوتك؟

- كانت معقولة جدا، ولو أني كنت متوجسة في البداية بمجرد إخبارهم عن رواية «قنديل أم هاشم » لجمهور الحضور، وخاصة الشباب، لاحظت أنهم لا يعلمون شيئا عن المؤلف نفسه، فماذا عن روايته؟!، الشباب يرغب في قراءة الكتابات الجديدة وهذا أمر جيد، لكن علينا أن نتواصل معهم بالأعمال العظيمة مثل أعمال «يحيى حقي ».

أخذت أتحدث عن عملي بحماس ونسيت نفسي كعادتي حينما أكون منفعلة بفعل شيء مقتنعة بأدائه، ثم انطفأ حماسي فجأة حين أدركت مرور الوقت وقلت: ما أسعدني تجاوب الحضور معي .

- قال -بتعاطف وتحفيز لفكرتي-: حاولي أن تختاري روايات للشباب الجدد، هذا يضمن لجلساتك حضورًا كبيرًا، واطلبي منهم بعد ذلك ما يودون قراءته ومناقشته .

- حدث بالفعل . الليلة اقترحت عليهم أن يختاروا الرواية التي يفضلون مناقشتها في الجلسة القادمة .

- مهمتك صعبة لكنها رسالة هامة لجيل عزف عن القراءة وغرق في الانترنت والتليفونات المحمولة .

- الإنترنت ثقافة منقوصة، قراءة الرواية ورقيا لها مذاق خاص، لا يعرفه الجيل الجديد .

أخذنا الكلام ونسيت أسالك لماذا طلبت مقابلتي؟

- هل تصدقين لو قلت إنك وحشتيني. ووحشني صوتك وحماسك في الكلام، و ...

قاطعته بهدوء: كل هذا؟.. جميل جدا .

- ماهو الجميل؟ إنني جاد في علاقتي بك يا «مي » ، لماذا تشككين دوما في مشاعري نحوك، أنا لست شابا غرا يريد أن يمارس مع فتاته اللعب بالكلمات وما أسهل ذلك، لكن أنا أريد الزواج ولا أريد غيره .

- كلامك جميل، لكن ليس له مكان عندي .

- أريد مقابلة والدتك. إلا إذا كان في حياتك أحد .

كم تمنيت لو تبتلعني الأرض في هذه اللحظة، وأختفي من أمامه .

قال متسائلا: أعتقد أننا متفاهمان ومتقاربان إلا إذا كان فارق السن يمثل مشكلة لديك .

قلت بلا تفكير: لا طبعا، الحكاية ليست لها علاقة بالزواج منك أو بغيرك، أنا لا أريد الزواج بأحد .

- لو في حياتك رجل آخر، سأتفهم .

- ليس في حياتي رجل، وإنما في حياتي امرأة .

- سأضع أمك في عيوني .

أضحكتني كلماته هذه المرة وقلت: لو عرفتها لوضعتها في قلبك وليس عيونك .

- أكيد تشبهك .

- قلت مبتسمة بل أنا التي أشبهها .

لم يفهم قصدي.. ما بداخلي لا يمكن أن يخطر على بال أحد، ولا يمكن أن يطوف في خياله صورة أمي وهي في شبابها .

قلت بعصبية: لا فائدة، مستحيل أن أرتبط بأحد .

- عموما لن أجبرك على حياة لا تريدينها، لكن رجائي أن تمنحي نفسك فرصة للتفكير .

قلت في سري : «لوكنت أملك حق الاختيار لكنت أنت من أريده زوجا » ، لكن ظروفي لن تمنحني هذه الأمنية .

إلي أين طال صمتك ليسألني: أين ذهبت؟

- لم أبتعد عنك كثيرا .

وساد الصمت بيننا مرة أخرى، فقط ظل ينظر نحوي في شرود وهو يعبث بمفاتيح سيارته، وبدا لي متوترا .

قلت بصوت حاولت أن يكون حاسما :

ممكن أعود لسيارتي؟

لم يعلق ببنت شفة .

عدت إلى البيت حيث أمي، ألتمس دفئها، وحنانها، طرقت باب غرفتها بأطراف أصابعي فاجأني وهن صوتها :

- حمدا لله على السلامة... عشاؤك جهزته لك على المائدة .

- سألتها: وهل تناولت أنت عشاءك؟

أجابت بنفس الوهن :

- تناولت قطعة توست مع زبادي..الحمد لله.. تصبحين على خير .

أقلقني حالها: الوهن وافد جديد يزور جسدها، أعلم أنها قوية.. ليس جسدا فقط.. بل روحا.. تكشف لي قوة روحها على مهل خلال الجزئيات الدقيقة التي تبعثها حركة الحياة اليومية بأحداثها التي تمارسها، ليس فقط من خلال علاقاتها كأم لوحيدتها، ولا من مقاومة معاناة فقدان بصرها.. ولكن من خلال مراقبتي للعشرة اليومية التي تنسج العلاقة التي بيننا، والتي أدركتها مقسطة وفق وعيي ونضجي على مهل عبر السنين التي جمعتنا.. مراقبتي لسلوكياتها إزاء قضايا هامة في حياتها.. أن تبتر علاقة حب حميمية فجأة بلا مبرر، واضح أو مقنع، وأن يتم زواجها بشكل تقليدي لم تكن لتتقبله لولا محنة حبها المغدور به، وأن يكون الزوج المختار عشوائيا، والذي يسفر عن مردود فج لرجل زير نساء خشن المعاملة، ورغم كل ذلك تتكشف لي، مكامن قوة روحها، كنت أتساءل: من أين تستمد هذه القوة الروحية؟ ! هل يا ترى لقراءاتها المتنوعة والخصبة قبل فقدان البصر فضل في تشكيل هذه الشخصية؟ أم لشروعه -الذي مارسته-في استكمال أدواتها الفنية لتشرع في البدء لتحقيق مشروعها الإبداعي؟ أسئلة كثيرة أعيشها.. لا أبحث عن إجابة لديها.. فقط أعايشها

متلمسة معطيات تلك القوة التي أراها جلية في حركة وجودها بالبيت.. أن تعد دون مساعدة ما تأكله، وأن تعد لي أيضا طعامي في كثير من المرات، تجعل الحيرة تنتابني ممزوجة بالدهشة. قدرتها العجيبة على التحرك في أرجاء الدار كأنها ترى كل شيء.. ممشوقة القوام دائما لم تحنها محنة العمى، ولا ترددت خطوات سيرها متجهة نحو ما تريد الوصول إليه، وما تريد عمله، كأنما تحول جسدها إلى وتر واحد مشدود تتلقى عليه صدى الأشياء حولها، فتتعرف عليها وتتعامل معها، أو كأنما الأشياء ترغب في التعامل معها سواء في المطبخ أو حجرة الطعام أو حتى في الشرفة التي تذهب إليها وتجلس على كرسيها هناك متطلعة تجاه شجرة الياسمين والنخل الوحيدة كأنها تراهما، منتشية بنسيم الهواء العليل الذي يداعب أغصانهما.. وكأن كل الموجودات ما إن تقترب منها في خطوها الوئيد تبعث إليها بذبذبات كهربائية إلى بؤرة بصيرتها التي تكمن فيها مشاهد حياتها وأشياؤها قبل فقدان بصرها لتتجسد أمام ذاكرتها واضحة جلية كما كانت تراها من قبل.. لقد أيقنت من حركاتها أن للبصر أيضا ذاكرة.. إنها أمي الضريرة المبصرة !!

عدت من حيرتي ورحلتي مع بصرها لينبثق في خاطري عدم سؤالها عن ندوتي وعن سر تأخري نحو الساعتين بعد انتهاء الندوة .. ترى ما الذي شغلها عن التساؤل؟ أم هو ذلك الوهن الجسدي الزائر الجديد؟ !

دخلت غرفتي عازفة عن الطعام، بحثت عن كتاب فلسفي أو تاريخي يجلب النوم.. متجنبة قراءة أية رواية يمكن أن تجذبني أحداثها وشخوصها،.. انشغالي بتفاصيل لقائي بـ «سليم علوان » الذي أنبت لأول مرة مشاعر جديدة متناقضة تتصارع في أعماقي يلفها غموض جلعتني في حالة من عدم الارتياح.. حالة غريبة من التعجب والنفور والقلق من طلبه الزواج مني!! ألقيت بالكتاب جانبا والذي لم أتبين حتى عنوانه، والسؤال الذي صاحبني منذ انتهى لقائي معه: كيف عرف ببعض دقائق حياتي؟! من الذي أخبره وكيف علم أنني ابنة حبيبته السابقة التي غدر بها ورغم ذلك يطلب الارتباط بها. لم يفصح في حديثه أنه يعلم كل شيء عني، ولكن ما بين السطور أوضحت لي كل شيء .

اللقاء الذي كان بيننا وما أحاط بنا لم يمكني من سؤاله لأستوضح حقيقة معلوماته،في دوامة هذه التساؤلات وما أصابني من إرهاق شديد، لم أشعر كيف انزلقت مشاعري وأفكاري التي أجهدتني منسربة بي في بطء نحو نوم عميق .

لست أدري أكان حلما أم حقيقة أن يأتي «سليم علوان » متجسدا أمامي في موعده الليلي؟ زيارة اعتدتها.. للغرابة لا أستطيع أن أفرق بين الحلم به زائرا وبين ما يحدث من لقاء يتم في الواقع لا في الحلم .

في زيارته هذه جلس على مقعده المعتاد أمام سريري، لم أفهم كيف كنت في حضوره أمامي منتبهة إلى أنني ألبس ثوب نومي الفضفاض الذي يبين أكثر مما يخفي..
انجذابي نحوه أشعر أنه ليس انجذابا نحوه كرجل..
الأمر معه مختلف.. انجذابي لشخص صورته لدي أنه كاتب مبدع حقق شهرة واسعة.. أصبح نجما.. أن أكون أنا دون المئات من المعجبات به أنثاه المفضلة..
انعكاسات شهرته ونجوميته، تجذبني نحوه أكثر من أن تجذبني إليه كرجل.. لاشك أن عمره الذي يتجاوز عمر والدي يقصيني عنه لمسافات لكنها ليست المسافات التي تبتر الود والمشاعر أيا كانت هذه المشاعر التي يغلفها تناقض حاد واقعة أنا فيه أدركه جليا.. كيف يكون هناك رغبة للارتباط مع رجل كان من المحتمل جدا أن يكون والدي؟ ثم متسائلة في حدة: ألا تطعن هذه العلاقة قلب أمي بخنجر مسموم؟

لم تبعدني أفكاري وخواطري أن أعود أعايش حضوره، لم يتحرك ولم يتكلم، كان فقط ينظر إلي.. هل ياتري كانت تصله خواطري المضطرمة؟

قلت له: لماذا أنت صامت؟.. ماذا تريد؟

قال: أريدك أنت ..

قلت: لماذا أنا تحديدا؟

قال: أحببتك في «راجية منصور» ، كما أعيد حبي لـ «راجية منصور» فيك أنت .

يريد أن يستعيد أمي في شخصي.. ، إنه بفقده لـ «راجية منصور »قد فقد الوجود والتحقق الحقيقي، ما حققه من نجاحات لم تشبع فيه ماكان يعيشه ويحسه بعمق في علاقته بـ «راجية ».. إطراءات المعجبات والصراعات التي تنشب بينهن للفوز بالنجم المتألق إضافة إلى أن هناك من تعرض نفسها عليه لتكون عشيقة للنجم المبهر، عشرات الخطابات في الفيس بوك تتنافس، وأي فوز يحققه لي على كل هؤلاء لأن أكون حبيبته حتى ولو عن طريق الاستعارة..أنا بدلا من أمي. ذهبت إلى إجابته عن سؤالي له أنه يريدني، هذه الإجابة وضعتني في أعمق مما أعايشه وأدركه من تشتُّت..أن يحب رجلا امرأة عشقها كما يدعي عمره كله.. وغدر بها رغم ذلك.. والآن يعشق ابنتها لأنها تذكره بها، إبان شبابهما وحبهما الذي انطفأت شعلته فجأة كأن ريحا عاصفا هبت.. هذا التمزق بين رغباتي والمقتضيات الحادة والمواقف الواضحة التي يفرضها كوني ابنة راجية منصور.. إنني أنتمي إليها.. إنني امتدادها.. جوهر وجودنا كلينا ممتزج في وحدة واحدة صلبة.. ونزوعي المضاد الذاتي عشقا للشهرة والنجومية.. مشاركة «سليم علوان » في أضوائه.. حياة بديلة للوحدة المعاشة.. هنا معه هو تحديدا تكون

الجدة والاختلاف لا الروتين الذي أحياه وما هو معتاد كل يوم .

أنا على يقين أدركته عندما استيقظت في الضحى أن تحديد المصير واتخاذ القرار الحاسم أصبح وشيكا..ما ينبئني بذلك أنني أدركت أن زيارات «سليم علوان » لي، هي استدعاءات مني له، أدركت جيدا مكمن رغبتي فيه.. وهذا الأمر ووعيي به يدفعني لاتخاذ قراري قريبا .

وكأنما كان قولي: إن اتخاذ قرار أصبح وشيكا محركا لجسدي لأقوم وأفتح النافذة أرقب سطوع شمس الضحي ورياحا خفيفة أقرب أن تكون نسمات تداعب شجرة الياسمين وأطراف النخلة الوحيدة.. بدت السماء من بعيد مزينة بسحب كعناقيد القطن الكثة ببياضها الناصع أجمل المشاهد للسماء في هذه الأوقات الخريفية التي تتوزع بين روح الصيف الذي تأكل أيامه الحارة وهبوب النسمات التي تحمل رسائل الشتاء القادم.. حالة الطقس تتبدى لي الآن كأنها حالتي التي تتراوح بين بين.. ولكن رغم ذلك القرار قريب .

السكون يخَيِّم.. أمي لم تستيقظ بعد .

15

الحياة خارج الروايات صقيع لا يحتمل .

كنت أفكر في الوهن الذي أصاب أمي في الليلة الفائتة. سمعت وقع خطواتها المتأنية متجهة نحو المطبخ، أسرعت الخطى ولحقت بها ألمس بأصابعي كتفها، استدارت نحوي كأنها ترقبني .

- صباح الخير يا «مي ».

- صباح النور يا حبيبتي .. ارتاحي أنت وسأعد لك فنجان قهوتك .

- ابتسمت ولم تلق بالا لكلماتي وواصلت سيرها نحو المطبخ .

تركت رأسي يميل على كتفها.. لم أشأ أن أسألها عن حالها.. بدت لي مستعيدة عافيتها.. فقلت لها وأنا أداعب خصلات شعرها المتمردة دوما من تحت إيشاربها القطني .

- إيه رأيك يا ماما لو تناولنا الغداء اليوم خارج البيت .. كنوع من التغيير.. على الأقل نرتاح من حيرة ماذا نأكل اليوم !

علي غير ما توقعت قالت بسرعة :

- ياريت !

الخروج مع أمي يشعرني بالسعادة والراحة النفسية وبأنني لست وحيدة، حينما تسير بجواري، وتتكئ بذراعها على ذراعي أشعر بأن الأمان كله بين يدي، دلفنا معا إلى حجرتها لاختيارملابسها، خزانة ملابس أمي مرتبة وممتلئة بالموديلات الحديثة التى كثيرا ما أستعيرها حينما تصادفني مناسبة خاصة، اخترت لها بلوزة بيضاء على جيب نبيتي غامق منقوش بأشكال هندسية دقيقة باللون الأزرق الغامق ووضعت على كتفها شالها الأرجواني الذي كثيرا ما استعرته منها، جمعت شعرها خلفها مشدودا بقوة تحت إيشارب موف معقود على كتفيها مما جعلها في أناقة عارضات الأزياء، ما زالت أمي تحتفظ برشاقتها ونضارة بشرتها، لولا شهادة ميلادها التي تقول إنها تجاوزت الستين لما أدرك من يحدثها وتتحدث إليه، أنها تجاوزت الأربعين، تبدو للعين الغريبة أنها أصغر من عمرها، لم تنس نظارتها الشمسية التي تحتفظ بسر عيونها الجميلة، طول عمرها تعشق الموضة وتتابع صيحاتها، حتى بعد أن فقدت بصرها تسألني دوما عن الألوان الجديدة وأحدث الصيحات، من وقت لآخر نخرج معا لشراء ما تريده من موضات الإكسسوارات والإيشاربات بألوانها المختلفة، التي تليق مع قوامها الرشيق، أما أنا فلا أهتم بمظهري

أو بالموضة معظم ملابسي «كاجوال » أرتدي الجينز الذي أرتاح فيه مع قميص أسود مطرز بخلفية من الفصوص الذهبية وأنتعل الحذاء الرياضي في غالبية مشاويري، مع حقيبتي المفضلة التي لايزيد حجمها عن كف يدي أعلقها فوق كتفي وأنطلق إلى مقاصدي.
وبعدما اخترنا ملابسنا انطلقنا سويا إلى كورنيش النيل، وفي الطريق سألتها :

- أي مطعم تريدين؟

- قالت دون تردد : ياريت «كل واشكر ».

ضحكت من اسم المطعم الذي أسمعه لأول مرة، معقبة على جملة «كل واشكر » قلت : الحمد لله!! لكن لماذا هذا المطعم؟

أجابتني بهدوء :

- حلمت بالأمس أنني جالسة في هذا المطعم أتناول السمك باشتياق وتلذذ.. حقيقة يا «مي » أنني أعجب كيف اقترحت خروجنا اليوم؟! كأنما بحت إليك بحلمي؟

قلت :

- لقد تعجبت من سرعة تلبيتك لاقتراحي بالغداء خارج المنزل، وأنت الرافضة دوما لما كنت أطلبه، لم أستفسر عن السبب؛ خشيت أن تتراجعي عن قرارك .

- مطعم « كل واشكر » من الأماكن التي ما زالت ذاكرتي تحتفظ بشكلها حينما كنا نأتي إليه أيام الجامعة أنا وصديقاتي، وبعد ذلك جئت في صحبة أبيك مرتين.. كانت مشاكل الرؤية قد بدأت تتسرب إلي فتبدو الصور باهتة ومضية، ربما تتعجبين أنني لم أصطحبك إليه من قبل واصطحبت والدك إليه مرتين متعمدة !

صمتت لثوان ثم أردفت قائلة: كنت أريد أن أسبر غور نفسي كيف يكون حالي عندما يشاركني في زيارة المكان الذي يحتوي جزءا من ذكريات حبي .

انتابتني دهشة شديدة، لخوضها بوضوح صاعق لقصة حبها الذي كنت أعلمه ولكننا لم نتناوله بمثل هذه الكيفية من قبل! هل مجرد اقترابنا لذلك المطعم له كل هذا السحر الذي أطلق لسانها وذكرياتها بهذا الخوض الشديد الوضوح الذي اعتبرته جرأة لم تكن لتمارسها إذا ما تذكرنا مواصفات أساليب التربية التي تقتضيها مقولات الأم لابنتها.. تحفظاتها السابقة عندما علمت بأنني أقرأ روايته تجاوزت دهشتي، وأعددت نفسي لتلقي كل دقائق ذلك الحب المغدور .

سألتها: هل حلمت بزميلات وصديقات الجامعة؟ أم كان حلمك بأبي؟

- حلمت بالمكان أولا .

ثم صمتت ورفعت رأسها.آثرتُ الصمت حتى تكمل حديثها.. هذه فرصة نادرة للبوح هي في مسيس الحاجة إليها، وتأكد لي أنها ستعرج للحديث عن «سليم علوان » ، إنني لست قارئة روايات فقط !

استأنفت حديثها، مدركة أن صمتي دعوة لها لتستمر في البوح :

- كنا نأتي إلى هذا المطعم الجميل بين المحاضرات، بعيدا عن عيون الفضوليين..نحكي ونحن نتناول طعامنا فيما يعن لنا من موضوعات في السياسة وأحوال الوطن والدراسة والأساتذة الذين نتناول سيرهم بالحب تارة وبالنقد تارات.. عن أحلامنا .. كان يقول لي : «لو أكلت كل يوم سمكا فلن أملَّ طعمه ».

كل السواحلية يعشقون السمك.. خبراء في أصنافه.. هو بورسعيدي أصيل .

تجاهلت من تعنيه.. لم أسألها عمن تتحدث، لم أرد أن أشعرها بأنني أدركت أنها تتحدث عن «سليم علوان » ، لكنها مدت يدها لتمسك بمعصمي وبدا أنها أحست بخفقات نبضي فأطرقت كما تفعل في مواجهة ما لا تفهمه .

ظلت صامتة حتى وصلنا إلى قلب الزحام الشديد، للسيارات التي يحاول السايس المكلف من المطعم

تنظيم مواقفها، اضطررت لترك مفاتيح سيارتنا له للاهتمام بشأنها بعد أن ساعدتها في الخروج من السيارة. ظللنا واقفتين نحو عشر دقائق قرب مدخل المطعم انتظارا لطاولة شاغرة .

وفي محاولة منها لنتجاوز الضجيج الذي يصم الآذان حولنا بادرت تحكي مستغرقة في ذكرياتها ومشاهدها السابقة :

- يا ترى المكان مثلما كان تحيطه أشجار الزينة على جانبي المقاعد؟ وهل الشموع ما زالت تتوسط الموائد؟

إن له طريقة خاصة في وضع علب الملح والفلفل وزجاجات الخل وحبات الليمون والقائمة الخاصة بالحلويات والمشويات، هل كل ذلك موجود؟

قلت مندهشة :

- كله تمام كما وصفته .

- يا للقائمين على أمر هذا المطعم العريق ! .. أن يظلوا محافظين طوال هذه السنين على هيئة وطبيعة المكان !

إن الدهشة التي لا تبرح خيالي منذ لحظة الحلم بـ «سليم علوان » تزداد تفجرا من وصفها الدقيق للمكان بكل تفاصيله! ولينبعث في أعماقي خاطر يحدثني أن

«سليم علوان » زارها ليلة الأمس بعد أن أنهي زيارته لي على عجل!! هل زياراته لأمي مثل زياراته لي؟

قطعت استرسال خواطري لتسألني :

- أخبار «سليم علوان » إيه؟

أعفاني نادل المطعم من الرد. أشار إلينا لنتقدم إلى طاولة انتهى من تنظيفها. جلست أحدق بملامحها الساكنة .

يالك من امرأة لا مثيل لها فيما خبرته من بطلات الروايات التي عشتها سنوات!. كأنك تختبرين قوة قلبك، فتصحبين والدي إلى مسرح حبك الوحيد الذي كان.. كأنما تؤكدين لنفسك، أنه مازال مشتعلا، ولكن في نفس الوقت برؤية سامقة تنفض عنها الضعف والاستكانة.. لا تنكر ما كان من حب حدث وتجسد، فقط من جانبها وحدها فقط لا يهم، المهم أنه كان حبا حقيقيا .

حضورها في المطعم ألمسه يقينا أمامي يفجر ذكرياتها ويبعث للوجود تلك الونسات الحميمة التي كانت تستغرقهما.. أحلام وآمال تجمعهما توحد بين قلبيهما.. نسيج اشتركا سويا في غزل خيوطه.. وتمزق للأسف .

بعد صمتي الذي طال عادت لتسألني عن سليم علوان، أجبتها :

- أخبار من؟ تقصدين .. «سليم علوان ».لا جديد عنه !

- وأعاود الهمس لنفسي : «هكذا يتأكد حدسي يا أمي .. حلمك ثم رحلتك إلى ذلك الزمن في صحبتي.. تعيشين ما فقدته.. حلما مستعادا ».

أجابتني بعد طول صمت لم يشف غليلها مكررة سؤالها بطريقة مغايرة :

- هل اتصل بك بعد لقائك معه؟

- لا .. لم يتصل .

لاحظت عزوفي عن الحديث عنه، صمتت لبرهة وعادت تتكلم.. أدركت أن لديها رغبة كالشهوة في الحديث .

ارتعش صوتها وهي تواصل الكلام عنه :

- لم أره منذ اختفائه من الكلية سوى مرة أو مرتين لكن أخباره كانت تصلني أحيانا من خلال حكايات الزملاء والزميلات، لم أفكر في أن ألتقيه، أو حتى الاستفسار عما يخصه، والغريب يا «مي » أنه لم يعن لي محاولة فهم أسبابه في انقلابه المفاجيء وقطع علاقته بي!.. كنا نتحدث ونثرثر مستمتعين ومنتشين عن مستقبل أيامنا سويا، عن أحلامنا وعن العش الذي سيضمنا.. عن أسماء أولادنا، كل هذا تلاشى لتصير الذكريات وجعا..

حتى ما كنا نحلم به ليس فقط ما يخصنا تحديدا حتى حلمنا الذي كان للوطن أيضا كل هذا صار هباء .

تركتها تبوح بمواجعها، وعن ذكرياتها في ذلك الزمن البعيد، وعن الحلم الذي لم تحققه « أن تكون كاتبة مبدعة » واكتسى كلامها بالشجن وهي تحكي أنها هي التي طرحت عليه فكرة الإبداع الأدبي ليكون مشروعهما، كانت كأنما تحاول في نهاية ثرثرتها المشجية أن تتغلب على أحزانها بما عوضها القدر عما فقدته لتقول :" ولكن أجمل وأصدق حكاية أعيشها الآن هي وجودك في حياتي يا «مي » ابنة رائعة ».

لحظة أن أنهت كلماتها كأنما كنت أسمع لأول مرة حديثها عن حلمها الذي لم تحققه ككاتبة اندفعت بخاطرة لم أفكر فيها من قبل :

- لماذا لا تعاودين محاولة الكتابة؟ ألم تكوني تحلمين أن تكوني مبدعة ؟.. إن ما أنت فيه الآن لن يمنعك من التخيل والحلم والإلهام والكتابة.بل هو حافزك لأن تعيشي حياة أكثر غنى ترتفع بك إلى آفاق جديدة مختلفة، إنها تتفق مع القوة التي تواجهين بها الحياة، هذه الحياة التي تلفها تناقضات وإحباطات وأحلام موءودة، إن فقدك لبصرك لن يحول بينك وبين الإلهام والإبداع، ما عليك إلا أن تمليني ما تفكرين فيه وأن أكتب لك.. هل أعجز فقدان البصر «طه حسين » من أن

يكون روائيا عظيما وعميدا للأدب العربي؟ فكري في هذا الأمر بجدية.. أرجوك .

أحنت رأسها كأنها تفكر فيما قلت.. اصطخبت في أعماقي موجة من الأفكار والخواطر؛ اندهشت عن حديثها عن «سليم علوان » ومشاركتي لها في تناول سيرته، ولم يخطر لكلينا أن أقرأ لها روايته التي يتناول فيها قصة حبهما.. يا للنفس الإنسانية وما يعتريها من تيارات غريبة تبعدها عما هو بديهي وقريب من التفكير.. لم تنته تساؤلاتي كيف لم أقم بقراءة «سأحبك للأبد » لأمي، كيف لم يمر بخاطري ولا فكرت فيه؟ لو حدث وكان صادقا في سرد تلك السيرة ربما كان بوسعها التعرف على أسباب ومبررات هجرته لها، ولتقف على حقيقة ما جرى، وخاصة أنها لم تسع في معرفة مبرراته وأسباب خيانته .

وفجأة قفزت إلى خاطري فكرة خِلتُ أنها جنونية.. ولكنها بعد تأملي لها وجدتها تستحق، بل يجب أن يتم دراستها جيدا، والعمل بجدية لتحقيقها.. أن أقرأ على أمي «سأحبك للأبد ».. وبعد استيعابها للرواية عليها أن تشرع في كتابة روايتها بدورها.. أن تكون روايتها موازية لرواية «سأحبك للأبد ».

هدأت أفكاري، وإن لم تهدأ مشاعري الجديدة التي تدفقت كخواطر ومواقف جديدة نحو شخص «سليم

»..«سليم علوان » الإنسان العادي، الذي تجرد من شهرته ونجوميته.. السؤال هنا من هو كإنسان؟

هذا الشخص الذي تبنى حلم أمي نيابة عنها، اقتنص الفكرة والمشروع الإبداعي لنفسه.. ثم هجرها بدعوى تفرغه للكتابة والإبداع، وإن ارتباطه بها سيحول دون تحقيق حلمه! يا لها من أكذوبة وقحة وفجة.. أكذوبة وراءها تلك الأسباب الخفية التي دفعته للانقطاع عن الكلية.. هي أسباب غير بريئة وربما تكون ملوثة تؤكدها تصرفاته غير المفهومة وغير المبررة .

إن الرؤية الصادقة والواقعية تقول: إن عشقهما المشترك في إبداع وكتابة الروايات يوحد وجودهما معا. يجمعهما في تآلف نادر.. ألا يحلم ويتمني كل مبدع لو ارتبط بقصة حب تجمعه مع مبدعة مثله؟! .. أي عذر قبيح يدفعه المثل المشهور «عذر أقبح من ذنب ».

كنت أرتكن إلى بعض المبررات التي يمكن أن تبرئ ساحته، ظروف أو أحداث خارجة عن إرادته.. ولا يمكن لإنسان أحبته أمي بهذا الإخلاص أن يغدر بها، وعندما تكشفت حقيقته التي تبدت لي الآن بهذا الوضوح.. يصيبني الندم على انبهاري برؤيته لأول مرة في حياتي -أنا المحجوزة طوعا في البيت مع أمي فقط-أن أرى رأي العين كاتب روايات يتجسد أمامي.. كم كنت أتخيل مبدعي الروايات التي كنت أقرؤها.. هنا مبدع أستطيع أن أتحدث إليه.. يمكنني سماعه.. أصافحه، وأمسك

بأصابعه التي خطت إبداعاته.. لم أكن في تلك اللحظات التي أخذتني في دوامة من الانبهار أعرف أن يجمع القدر بين من يتجسد أمامي روائيا عظيما وبين أمي في قصة دامية ..!!

الآن لا تفارقني دهشتي الصاعقة، لا بل أنا الآن ساخطة على نفسي ومشاعري، التي حركها ذلك الشخص المزيف! كيف أحببت من خان أمي؟ !

لن أستطرد في السخط أكثر مما ينبغي. ما هو مهم الآن.. ألا أكف عن الإلحاح والضغط والمثابرة التي لا تمل ولا تهدأ حتى تكتب أمي روايتها الأولى .

لو أنجزتها؟ ولابد أن تنجزها.. ستكون بمثابة الرواية المعارضة الأولى –فيما أظن-كما يسمى هذا الإبداع الشعري، عندما يكتب شاعر قصيدة معارضة لقصيدة شاعر آخر بنفس القافية والوزن .

نعم ستكون رواية معارضة ليس هذا فقط.. بل إنها ستكون بداية شفاء أمي من ذكرياتها الموجعة التي أعتبرها الآن مرضا.. وستكون روايتها فوق كل ذلك انفجارا مدويا في الحياة الأدبية لم يسبق له مثيل.. ستكون الرواية المعارضة الأولى وربما الأخيرة التي حققت نهجا غير مسبوق في الإبداع الروائي .

انتشيت للفكرة ولن أكف عن الإلحاح عليها حتى تنجزها .. سأكون لها عونا وسندا ومحفزة لا تمل ولا تهدأ.. ستكون الرواية باكورة إبداعاتها التي سترى النور.. تلك المشروعات التي طمرتها خياناته لحظة أن تضع النقطة الأخيرة بعد الكلمة الأخيرة في الرواية ستكون لحظة فارقة، تحول جذري ليس فقط في مسيرة حياتها وأيامها القادمة، بل ستكون كذلك في مسيرة حياتي أنا أيضا .

شغلتنا أحاديثنا التي تبدت كأشجان وخواطر وأفكار جديدة لم نطرقها من قبل عن أن ننجز تناول طعامنا في التوقيت المناسب لإيقاع حركة زبائن المطعم الذين ينتظر الكثير منهم خلو مائدة.. كنت مندمجة كلية في فكرة الرواية المعارضة، وهي بعد صمت وتأمل فيما حدثتها واقترحت عليها؛ بدأت تفصح لي عما كانت تفكر فيه :

- أتعجب الآن كيف لم يخطر لنا أن نقرأ روايته «سأحبك للأبد » أرجع ذلك ربما لضيقي منه.. لم أطلب منك قراءة الرواية، ولم يستبد بي الفضول، إنه أمر يدهشني الآن، ولكن عندما علمت أن له رواية يتحدث فيها عن الحب، تساءلت تساؤلا مبتورا: هل هو حبه لي؟ أم محبوبة أخرى؟.. تلك التي كانت بصحبته دائما عندما بدأ العودة للكلية على فترات متباعدة، كما أنني لم يدفعني فضولي لاستكشاف موقفه الحقيقي مني،

أبت كرامتي أن تخطر هذه الخاطرة، حقيقة، وما زلت رافضة له كلية، ولا أتساءل لماذا أنت بدورك لم تحاولي أو تقترحي قراءتها لي، أظن أنه كان إشفاقا ومحبة منك، ولكي لا تجددي مواجع الجرح الذي صحبني طوال تلك السنين رغم زواجي من أبيك .

ما كنت أحسب أنني أخون أباك وحبي لـ «سليم علوان » مستعر داخلي رغم رفضي له كلية.. حقيقة لم يكن حبي مستعرا لـ «سليم علوان » ، كان حبي لمشاعر عشتها.. النشوة المحققة التي كنت أعيشها بكياني كله ويا للغرابة كانت مجردة من «سليم علوان ».. كان اعتزازا لأنني أملك هذه المشاعر.. أتعجب لحالي.. كيف أحبه هذا الحب وكيف أرفضه في اللحظة نفسها: وكيف كان لي أن أصحب والدك إلى هنا وكل هذه المشاعر مستعرة داخلي.. نعم هنا في مطعم «كل واشكر » تحديدا وما يحمله هذا المكان من معنى ودلالة؟ !

- لا تعجبي يا حبيبتي .. إن أسمى وأروع حب هو ما اتسم بالنقاء الروحي والصدق من أية شائبة.. الحب من أجل الحب.. رؤية رومانسية.. ولكنها حقيقية لأن مكونها الصدق.. إنه الحب الذي إن مسته شعرة رهيفة غير نقية يفجر في الأعماق ما تعانيه أنت الآن وتكابدينه طوال هذه السنين.. إنك كم تمنيت أن يكون ما حدث منه قدر خارج عن إرادته.. وليس تشوها أصاب رؤياه لك.. نعم تحبينه وترفضينه في اللحظة

نفسها.. إن الحب ما هو إلا تمثيل للحكاية التي نعيشها عنّا وعن الآخر وعن شكل علاقتنا به .

- صدقت يا غاليتي. لقد قرأتني من داخلي.. كأنك كنت تصحبين خواطري، بكل ما تعتمل فيه من صراعات نفسية والقدرة على إدراك ما هو في أعماقي بهذا الوضوح .

صمتت بعد أن أصابني حديثها بحالة من الذهول لم أعرفها من قبل، كانت تعبيرات وجهها وحركة أهداب عينيها متسقة مع مخارج الكلمات ووقعها الخاص كإضافة جديدة لتزيد بذلك معرفتي لأمي التي أراها الآن مختلفة عمن عاشرتها عمري.. كنت كمن تتكشف أمامه قارة مجهولة رغم ما كان يتبدى من ردود أفعالها تجاه ما كانت تواجهه بصمودها الأسطوري من محن والتي كنت أسميها قوة الروح التي مكنتها أن تكون على ما هي عليه من قوة وصمود أمام ما يمكن أن تعيشه زوجة في تكوينها ذي الخصوصية مع رجل زير نساء يحضنها بخشونته طبعا وسلوكا، ومن قبله حبيب غدر بلا مبرر..ذهاب البصر.. الحرمان من رؤية وجه حبيبتها الوحيدة.. من التطلع إلى تعبيرات الوجه الصغير الذي ينمو بجوارها .. ولا تملك غير أن ترقبها وتتبع خطواتها ونضجها، كلها تخمينات من عقلها وتصوراتها التي تنسجها من خيالها.. تتعرف عليها بلمسات أصابعها.. تجذبها وتحتضنها وتشمها كما تشم

الكلبة جروها الصغير، لتستقي تلك الرائحة الطفولية الممزوجة بلبن ثديها في عمق حاسة الشم لديها، ما زلت كما أنا طفلتها.. خيالها الذي تحاول أن تستعين به لتلمس التغيرات التي أضفاها الزمن والتي تصحب نموها على مهل، خيالها يخذلها لتدرك ملامحها عبثا تنشد أن تكون رؤيتها ليس من نسج الخيال ولكن من المعاينة.. تعود مرة أخرى لرؤياها التي استقرت عليها ذاكرتها البصرية إلى ما كانت عليه في طفولتها مستكينة بعد إخفاقاتها وتعايشها كما كانت طفلة صغيرة.. يصارع فكرها نزوع في العمق من تمنياتها أن تكون «مي » عروسة.. ومتزوجة ولتحقق إحدى أمنياتها وما أكثرها والمدفونة في أعماقها.. أن تكون جدة لتمارس من جديد أمومة بمذاق خاص مختلف .

كانت كمن ترقبني لتعرف صدى كلماتها لي.. بعد دقائق من الصمت ذهبتُ بعيدا عما كنا نفكر فيه.. عدتُ لحلمي الجديد الذي سأعمل عليه أن يتحقق: أن تشرع في كتابة روايتها المعارضة .

عدنا للصمت مرة أخرى، وبعد لحظات سألتها :

- هل ترغبين في تناول شيء؟

أجابتني بلهفة :

- «باننا بوت » مركب الموز بالآيس كريم .

رغبت بشدة مشاركتها.. طلبت اثنين .

بدت لي وهي تهز رأسها وترفع كفها نحو صوتي كأنما ترغب أن تستعيد بخيالها لحظات من أيام العشق الغابر لحبيب كان يشاركها نفس الرغبات، وفي هذا المطعم تحديدا.. وربما على هذه المائدة. وبدت لي في مظهر آخر تزورني فيه في بعض الأوقات كأنها هي طفلتي وأنا الأم التي ترعاها وتحنو عليها .

انتهينا من تناول مركب الموز بالآيس كريم، وغادرنا المطعم متوجهين نحو السيارة.. عدنا لبيتنا على حال غير التي غادرناه بها منذ سويعات.. ما مررت بتجربة ولا اخترت مرحلة بدت لي من زخمها عمرا آخر كتلك التي عشتها في ذلك المكان الذي سميته «عش الغرام المفتقد ».. أكاد أجزم أنني كنت «مي » أخرى غير التي كانت هناك قبل سويعات من زيارتها لذلك العش المفعم بالذكريات.. يتمدد في أعماقي صدى عمر عشته من قبل.. ولكن في أي زمن لا أدري.. هل هو فعل المتغير الذي يتأكد داخلي أنه تغير كلي لحياتنا .

إن ما حدث في يقين والدتي ويقيني ونحن مازلنا في مطعم «كل واشكر » وما يمثله من خصوصية عند والدتي.. يعيد لها ذكرياتها مجسدة.. تسمع أصوات الحضور في جلبتها وحركتها حولها.. ما عاشته بعمق في زياراتها المتكررة مع الحبيب وما عانته بصحبة والدي للموضع الذي يشكل لها خصوصية تربت على

قلبها حنوا.. ثم معاناة، عاطفتان ممتزجتان معا في نبض هي في مسيس الحاجة إليه يعني أنها ما زالت حية تعيش قدرها...مكان يحدث انفتاحا متبادلا يجري بيننا لأول مرة بهذا الوضوح ومواجهة الذات بدون تحفظات كاشفا مكنون خواطرنا الخاصة التي كانت مكسوة بحجب ما كان ينبغي أن تكون بيننا.. إن ما جرى كان جديرا بأن يجعله علامة فارقة وهو بالفعل كذلك ويوم فاصل بين ما قبل زيارتنا لهذا المطعم «المكان الفاعل » وما بعدها، إنه يوم شرعت أؤرخ به ما يلي ذلك من أحداث ومواقف بل وحتى مصائر .

شرعت حياتنا تتخذ مسارا جديدا ومختلفا وفق رؤيا تحمل آمالا تفجر زخمها في شرايين أفكارنا التي بدت بمذاق ومضمون مختلف عما كنا نعيشه من قبل.. بدت تتفتح بصائرنا لرؤية للحياة مغايرة عما اعتدناه .

كانت أولى هذه التحولات أن توَقَّف زائر الليل عن زيارتي.. لم أعجب أو أندهش، تحول صادق.. حقيقة أصبحت أكثر صدقا وأمانة أولا مع نفسي.. لم أكن أعترف لنفسي أنني التي تستدعيه إلى غرفتي فيزورني ليخفف وحدتي، كانت رغبات الجسد والروح هي التي تحثني على السير نحوه.. كان إعجابا وانبهارا بشخص بدا لي متفردا ومتميزا، ثم تكشف لي غير ذلك .

نعم كنت أستدعيه .

بدأت من فوري أكرس جلسات منتظمة ومتتابعة أقرأ لوالدتي رواية «سأحبك للأبد ».. ما كانت تبديه من انفعالات وردود أفعال بيديها وحركات الانقباض والانبساط في وجهها لما تسمعه يمكن أن تكون رواية أخرى .. لم تشغلني هذه الحالة.. كنت أتوقعها.. كنت معنية بأمور أخري، مدركة أن انفعالاتها وردود فعلها لما تتلقاه في إبداع روايتها المعارضة .

ووسط كل هذه الأحداث التي نعيشها كنت مشغولة بسؤال :

كيف تسنى «لسليم علوان » أن يعرف أن والدتي هي التي غدر بها .. «راجية منصور » زميلته في الكلية والتي يردد نفيه في كل ثرثراته التي شغلت زمنا كثيرا من المرات القليلة التي التقينا فيها؟ زياراته الليلية في أحلامي كنت أنا التي تردد مخاوفي من تلك المعلومة التي أسردها كأنه هو قائلها، هذا الأمر الذي يستدعي إلى ذهني سؤالا هاما: كيف لكاتب شهير ذي مكانة خاصة، وأيا كانت الطريقة التي حاز بها هذه المكانة، أن يتقدم لي طالبا الارتباط به زوجة.. إنه يتقدم بطلبه بالرغم من معرفته أنني ابنة من غدر بها؟ ألم يمر على خاطره المريض أنه لو تسنى لهما الزواج وحقق لهما القدر حلمهما.. أو أقول حلم أمي وحدها لو حدث هذا لكنت أنا ابنته، وهو الذي قارب على السبعين من عمره؟! الحمد لله أنه ليس أبي، إنني ابنة عبد الحميد

شعبان.. الحمد لله أن القدر الذي يدون بأمر الله الأنساب في كتب السماء قبل أن تتحقق على الأرض لم يجعلني ابنته.. ألا ينبئ نزوع هذا الرجل عن شذوذ نفسي؟.. وتَرَدٍّ بشع؟ ألا يدل حقيقة جوهر شخصيته التي لم تغادرها الأنانية رغم تقدم عمره متكورا في ذاته، نرجسية ترديه إلى درك سافل من الوجود، غدر بمن تحبه حبا أدرك بعد عمره الطويل الذي صاحب غدره أنه خسر إنسانة جميلة ، وبأنانيته يريد الآن أن يستعيد «راجية منصور » في ابنتها! كيف لمبدع كبير يقدمه المجتمع على أنه نموذج روائي يحتل مكانة عالية في نفوس عشاقه الذين لا يعرفون حقيقته! ولا يتوقعون أن يكون سارقا ومدعيا، هل يمكن لوالدتي في روايتها المعارضة أن تكشف كذب ونفاق هذا الرجل وتقدم نموذجا لشخصيته الحقيقية لتدفع علماء النفس لدراستها وتحليلها .

تلقيت مكالمة من «عم محمد متولي » يطلب مقابلتي في أمر شخصي. أخبرت والدتي وذهبت لمقابلته.. استقبلني بترحابه المعهود وطلب شايا لكلينا، بدا لي حائرا من أين يبدأ الحديث. ازداد فضولي آثرت أن يختار هو متى وكيف يبدأ الحديث وكيف يفتتح الكلام وإن كان الأمر أصبح بالنسبة لي يحمل أهمية خاصة.. ازددت ضغطا على فضولي كابنة له رغم القلق الذي بدأ في قلبي .

بعد أن أخذ نفسا طويلا من سيجارته تحدث على مضض :

زارني منذ عدة أيام الأستاذ «سليم علوان ».. استغربت من زيارته، سألني عنك فازداد استغرابي ولكنه أوضح أن مدير المكتبة هو الذي أحاله عليّ حينما سأله عنك؟

أخبرني أنه بصدد تقديم برنامج في القناة الثقافية ويرغب أن تكوني معه في البرنامج للحديث عن روايته .

حدثته عنك وعن دراستك وشهاداتك الجامعية وعن حياتك وعلاقتك بأمك وظروفها الصحية وللغرابة سألني سؤالا تحيرت أمامه قال: هل «مي » تشبه أمها؟ قلت له: هناك شبه كبير بينهما، هل تذكرين عندما أطلعتيني على صورك معها؟ واختلط الأمر عليّ من شدة الشبه بينكما؟

قاطعته: يا عم محمد ألم تلاحظ أن مشروع البرنامج الثقافي ليس له علاقة بالشبه الذي يسأل عنه علوان؟ أجابني على الفور: هذا ما راودني أيضا من طريقته فسألته: يا أستاذ سليم، أنت تريد معلومات عن عروسة وليس كضيفة في برنامج ثقافي، هل تريدها لابنك .

نظر لي ضاحكا: لا.. أريدها لي أنا .

اندهشت مصعوقا من صراحته، كيف يفكر في الزواج منك، ولديه أولاد في مثل عمرك .

حدق في وجهي بعينين زائغتين: هل يمكن أن توافقي على الزواج منه؟ !

نظرت إليه وأنا على وشك الضحك: طبعا لا أوافق، الأمر أصلا غير مطروح في حياتي .

وفي طريق عودتي للبيت أخذ هاتفي يرن برقم حفظته جيدا حاملا صورته التي لا تفارق مخيلتي وهي تومض وتنطفئ مع رناته المتلاحقة.. لم أجب عليه، أرسل رسالة إلكترونية .

عدت للبيت كانت أمي في انتظاري، وجدتها أعدت غداءنا المعتاد على مائدة الطعام بكل أدواتها من أطباق وشوك وملاعق ودورق المياة ولم تنس فازة الورد التي وضعتها في المنتصف كأنها على موعد مع حبيب .

احتضنت أمي هامسة في أذنيها: أحبك..ولم أشغلها بأمر عم محمد ولم أخبرها بأمر تليفونات «سليم » كل ما قلته لها: الليلة موعدنا مع البدء في كتابة روايتك .

كتابة هذه الرواية امتحان للنسيان والغياب والظلال والرماد. إنها امتحان للهروب من أقصى الظلام إلى أقصى الضوء.. ستكون روايتك.. امتحان الإمساك بطرف الخيط الآخر للحكاية .

- تلمست في طريقها إلى مقعدها المفضل وقالت :

لقد «قادني إليه قدر.. وسرقه مني قدر.. وبين القدرين ضاع قلبي ».. وأدركت أن لعنة قراءة الروايات ما زالت تطارد أمي .

جلست أمامها وأحسست أنني عدت إلى مدينتي المحاطة بحديقة صغيرة متناسقة تزينها شجرتان وحيدتان.. شجرة الياسمين الوارفة والنخلة السامقة بلا طرح ..

تمت

2 يوليو 2018